فريق
متميزون
E-BOOK
رواية
الهامسون
(سلسلة أساطير)
محمد الناصر
نوفا بلس للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الهامسون

محمد الناصر

عن الكتاب..

"كلُّ ما في الأمر أنَّك وضعتَ قدمَكَ في بداية الطريق.

وهذا ليس معناه أنك فهمتَ كلَّ شيء، أو أنك أدركتَ كلَّ ما هو مطلوبٌ منك، القادم سيكون أكثرَ شراسةً وتعقيداً.

اليوم ذكرت لهم قصتَك مع تلك الممسوسة "جميلة"، وكيف استطعتَ أن تتجاوز هذه المرحلة بنجاح وجدارة.

نحن نعلم بأنَّك إنسان منطوٍ على نفسك، ولا تحبُّ الاختلاط مع الآخرين، وهذه أوَّلُ صفة نبحث عنها بوَرِيث الشيخ عزَّام، أعتقدُ أنَّك أصبحتَ تعرف الشيخ عزَّام جيِّداً... نعم إنه جَدُّكَ مُمثِّلُنا أمامَ البشر، أدَّى رسالتَه جيِّداً، واستطاعَ أن يُسلِّمَها لك. "

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء

إلى الذين واجهوا الخِذلان بابتسامة

دانت له الهيمنة وفك قيده

وعاث في الأرض فساداً

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمة

كلُّ ما في الأمر أنَّك وضعتَ قدمَكَ في بداية الطريق.

وهذا ليس معناه أنك فهمتَ كلَّ شيء، أو أنك أدركتَ كلَّ ما هو مطلوبٌ منك، القادم سيكون أكثرَ شراسةً وتعقيداً.

اليوم ذكرت لهم قصتَك مع تلك الممسوسة "جميلة"، وكيف استطعتَ أن تتجاوز هذه المرحلة بنجاح وجدارة.

نحن نعلم بأنَّك إنسان منطوٍ على نفسك، ولا تحبُّ الاختلاط مع الآخرين، وهذه أوَّلُ صفة نبحث عنها بوَريث الشيخ عزَّام، أعتقدُ أنَّك أصبحتَ تعرف الشيخ عزَّام جيِّداً... نعم إنه جَدُّكَ مُمثِّلُنا أمامَ البشر، أدَّى رسالتَه جيِّداً، واستطاعَ أن يُسلِّمَها لك.

لا تظنَّ أنَّ قصتَك السابقة مع الممسوسة حدثتْ بمحض المصادفة، ولم يكنِ لها مخطَّطاتٌ سابقة بدقَّة وعناية، منذ تلك الدعوة التي قام بها أحدُ أصدقائكَ القُدامى في منطقة كبد، حتى لحظة وصول جميلة وسقوطِها أمامَ ذلك المنزل مغمىً عليها، وهي مبعثرةُ الهيئة وملطَّخةٌ بالدماء، وعندما أفاقت صرخَت باسمك، رغم أنها لم تقابلْك أبداً، هذه أولُ العلاماتِ على تنصيب الوَريث، وإعلاء المَقام، وتجهيزكَ لمواجهة العالَم الآخر.

نحن نعلم جيِّداً أنَّك قليلُ الكلام، وكثيرُ الحديث مع النفس، وهذه أيضاً علامةٌ مِن العلامات، وتأكَّد أن جميلةَ كانت مسيَّرة لك، حتى تقودَكَ إلينا بإذعان.

لقد أتممتَ قصتَك مع الممسوسة، وأخرجتَ ذلك الشيطان الذي تلبَّسها، واستطعتَ القضاءَ عليه، رغم الإمكانيَّات البسيطة الَّتي كانت لديك.

نحن نراقبُك منذ ولادتِك، ونرصد تحرُّكاتك، "جليلةُ" حاولت أن تُخفيك عنَّا، وتبعدَكَ عن عالَمنا، رغم أنَّها كانت هي الوريثة، لكنها استطاعت الهروبَ، أنت القادمُ الجديد لهذا العالَم الغامض، الَّذي من خلاله ستواجِه مخلوقات لم تعرفْها، كياناتٌ غيرُ مألوفة لك، شياطين تتمنَّى أن تكسركَ وتقضي عليك، عزَّام أعطاكَ كل المفاتيح، والشيخ زهران سيوجِّهُك، أتباعك في الأيام القادمة سيزدادون، لن تجدَ أيَّ مُعين إلَّا منَّا، واحذرْ كلَّ الحذر من المنافقين الَّذين يُحيطونَ بك، فهُمْ أشرُّ الأعداء.

قصة الممسوسةِ جميلة انتهَت وانطوَت صفحتُها، وأنت الآن مقبلٌ على مغامرات ومواجهاتٍ جديدة أكثرَ من السابق، نحن معك وأمامَك وخلفَك، وبكلِّ اتجاهٍ ستجدُنا تحت إمرَتِكَ.

مع الأيام المقبلة شخصيَّةُ عدنان المضطربةُ والمهزوزةُ غيرُ الواثقةِ بنفسها ستتغيَّر، لن تصبح عدنان الشارد بلا تركيز، عدنان محبُّ الوَحدة والانطواء، عدنان المهمومُ بلا حزن، ذلك القلقُ سيزول، والتفكير السوداويُّ سيندثر، اتكاليَّتُك ستنتهي، وثقتُكَ بالآخرين سنعيدُ ترميمَها، حتى لعثمةُ لسانك بالكلام سنفكُّ عُقَدَها، لن تعودَ ذلك الشخصَ الَّذي كانوا ينعتونه بأنَّه إنسانٌ بلا فائدة، كلُّ شيء سيتبدَّل، أسرار نفسكَ نعرفُها.

قضيت على ذلك العفريت جشمان وحررت جميلة، لن تتعاملَ مع الوقائع بقلبك، بل سنُوقِدُ فتيلةَ عقلكَ الَّتي ستصدر منها أهمُّ القرارات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

الدخان ينتشر، والصَّيحات تزداد، النار تستعر، ولَـهَبُهَا يلفح الوجوهَ، الناسُ تتجمَّع حول ذلك المنزل الكبير، القلوبُ تدقُّ وتدقُّ، والعيون تترقَّب، والمشاعر تتضارب، ويخرج من الباب شابٌّ تلطَّخَ وجهُهُ بسُخام النيران، هزيلُ الجسد، وعيناه مضطربةٌ، مطأطئٌ رأسَه على الأرض، وهو يمدُّ إصبعَه تجاه البيتِ والكلماتُ تكاد تختلج بفمه، سأله أحد المتجمهرِين:

- ما الَّذي يحدث في الداخل؟ هل أصاب أهلكَ أيَّ مكروهٍ؟ وهل أنتَ بخير؟

لم يُجبْ، بل وجَّه ناظرَيه ناحية الدار، فيما النار والدخانُ لا يزالانِ يمارِسان ألاعبَيهما وسط هذا البيت، لم يأبَه به أحدٌ بسبب صمته المُريب، وانطلق الجيرانُ إلى داخلِ المنزل محاولين إنقاذَ ما يمكن إنقاذُه.

إلا أنَّ ما حصل بعد دقائق كان غامضاً، النارُ كانت تشتعل بغرفة واحدة، ولم يلحقِ الأذى بالغُرف الأخرى، وهذا ما شكَّل صدمةً كبيرةً لجميع مَن كان موجداً بالمكان، رغم أن هناك العديدَ من الأسباب الَّتي كانت كفيلةً في انتشارها بسهولة.

وقبل وصول رجال الإطفاء، كانت الصدمةُ الثانية عندما اكتشفنا أنَّ باب الحُجرة الَّتي تشتعلُ كان مغلقاً من الداخل، ومن الصعب الاقترابُ منه بسبب سخونة الحيِّز، وكأن حِمماً بُركانيَّة قد مرَّت من هنا قبل قليل، وهو ما جعل عمليَّة إنقاذِ مَن في الداخلِ صعبةً جدَّاً.

وعندما وصل الإطفائيُّون للموقع كانت النارُ قد التهمَت كلَّ شيء بالغرفة، لم يتبقَّ منها سِوى الرماد الَّذي ملأ الأجواء، وفي وسط الرُّدهة جثَّتان متفحِّمتان بشكل بشعٍ جدَّاً، لم يقوَ كلُّ ما كان مَوجوداً على النظر إليهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

كلَّ شيء كان يتوقَّعه إلا وجود هذين التمثالَين بيدِ أولاده عند وصوله للمزرعة الواقعة في منطقة الوفرة، تماثيلُ صغيرةٌ سوداء اللون، تباينت أشكالُها؛ إذ كان أحدُها على شكل رأس ثعبان صغيرٍ ذو قرنَين بارزَين، فيما كان الآخرُ على هيئة غريبةٍ بلا أيِّ ملامحَ ظاهرةٍ، وخُيِّل إليه أنها رأس بومة، وهذا ما استوحاه في البداية.

من أين أتيتم بهذه التماثيل؟

قالها إبراهيمُ مستفسراً.

أجابه ولدُه الأكبر طارق:

- لقد وجدناها عند جدتي حسنة.

بان على وجه إبراهيمَ ملامحُ الاستغراب، مردِّداً في داخله:

- منذ متى ووالدتي موجدة في المزرعة؟ لم تخبرْني بأنها ستأتي إلى هنا!

نظر لساعة يده يريد التأكد من الوقت الَّذي كان لم يتجاوز الثامنةَ صباحاً متسائلاً:

- هل من الممكن أن تكون أمي أتَتْ من ليلة البارحة؟

بدأتِ التساؤلاتُ تشقُّ طريقَها في ذهن إبراهيم، لا يعلم كيفَ ومتى وصلَتْ والدتُه قبلهم إلى المزرعة؟ إنها من النوع الَّذي يخبِرُ الجميع قبل الإتيان إليها، لماذا هذه المرةَ قامت بهذا التصرُّف الغريب؟

- هل أنتما متأكِّدان أنَّ جدتَكما حسنة موجودة في الداخل؟

قالها إبراهيمُ لولدَيه طارق وناصر.

نظر الولدان إلى بعضهما البعض، ثم قال طارق مرَّةً أخرى:

- أبي.. جدَّتي حسنة في الداخل، وهي من أعطَتنا هذَين التمثالَين، وإذا لم تصدْقنا اذهب وتأكَّد بنفسك.

صمتَ إبراهيمُ ولم يجب على أولاده، تقدَّم بخطواتٍ بطيئةٍ ناحيةَ المبنى الصغير الَّذي يتوسَّط المزرعة، يريد التأكُّد بنفسه مما قالَه الولدان، ثم قطعَتْ زوجتُه صفيَّةُ موجةَ تساؤلاتِه وهي تُنادي من بعيد:

- إبراهيم! تعالَ وخُذْ من يدي الصغيرةَ فرح.

التفت إبراهيمُ إليها وهي تقف ما بين الحقول من بعيد، لكنه لم يهتمَّ لندائها، ثم أكملَ طريقَه متوجِّهاً للحُجرة الَّتي علمَ من أولاده أنَّ أمَّه موجدةٌ بها، وبيدِه التمثالان الغريبان.

أزعجه كثيراً نُباحُ الكلب الَّذي كان يقفُ بجانب البوَّابة القريبة منه، التفتَ ناحيتَه وقال بينه وبين نفسه:

- لا أعلم لماذا والدتي تحتفظُ بهذا الكلب الأعور، لا فائدةَ منه سوى النُّباح المزعج.

دخل الغرفة ليرى أمَّه كما قال له أولادُه، وهي تجلس مُرتديةً عباءَتها السوداءَ شاردةَ الذهن، ولم تُبدي أيَّ ردَّةِ فعل عندما دخل إبراهيم عليها المكانَ، إلا من التفاتةٍ بسيطةٍ إليه، ثم بعد ذلك عادَت لتلك الحالة الَّتي رآها إبراهيمُ عليها.

قبَّلها على رأسها، ثم قال لها:

- لم أكن أتوقَّع أن أراكِ هنا!

أجابَته ببرودٍ غيرِ معتاد:

- فضَّلتُ عدم إخبارِ أحدٍ.

قال إبراهيم بعد أن جلس بجانبها:

- لماذا يا أمي؟ هل حدثَ شيء أزعجَكِ من أخي أسامة؟ ثم إنَّ هذه ليست طريقتك؛ فأنت من النوع الَّذي يُخبِرُ الجميعَ قبل المجيء إلى هنا.

نظرتَ إليه وقالت:

- العاداتُ في بعض الأحيان تتغيَّرُ إذا كانت هناك أسبابٌ، والروحُ تتوقُ للانفراد.

لم يفهم إبراهيمُ جملةَ والدته، لكنَّه أراد أن يُبيِّنَ لها أنه قد فهمَ مقصدَها:

- مفاجأةٌ جميلة يا أمي، لكن من أين جلبتِ هذه التماثيلَ، لقد أخبرني طارقٌ أنَّكِ مَن أعطيتِهم تلك الأشياء.

نظرت للمجسَّمَينِ وقالت:

- يبدو أنَّ الصغيرَينِ لا يعرفانِ قيمةَ ما كانا يحملانه، كلُّ ما في الأمر أنَّني كنتُ في السوقِ واشتريتُهم لأُسعِدَ أولادَك بهم.

لم تكن إجابةُ والدته مقنعةً فقال:

- إنها تماثيلُ، وأشكالَها غريبة، وأولادي لا يكترثون لمثلِ هذه الأشياء، وأيضاً أعرفُكِ جيِّداً أنت لستِ من النوع الَّذي يجلبُ الهدايا، دائماً تقولينَ: "النقودُ هي العصا السحريَّةُ الَّتي تجلبُ لنا السعادةَ".

قطَّبتْ حاجبَيها بعلاماتِ عدم الرضا، وقالت بشكلٍ مباشر له:

- إبراهيم لماذا أنتَ اليوم كثيرُ الأسئلة، هل وجودي قد أزعجَك؟

فطنَ هنا لنفسه، ثمَّ ابتسم ابتسامةً مصطنعةً يحاول تلطيفَ الأجواء وقال:

- لا... لا يا أمي، إنَّ مفاجأةَ وُجودِك هنا هي الَّتي جعلَتني متحيِّراً، لا تكترثي كثيراً فالمكان أوَّلاً وأخيراً مكانُكِ.

هنا قالت والدتُه:

- لا تخفْ أسامةُ لن يأتيَ اليوم، أعلم جيِّداً أنك لا تريدُ أنْ تراه بعد المشكلةِ الَّتي حدثَتْ بينكما، وتحاولُ أن تتحاشاه قَدْرَ المستطاع، اطمئِن كلُّ الأمور ستسيرُ على ما يُرام.

نظر لها وهو يحاول إخفاءَ ملامح ارتباكه وقال:

- يبقى أخي ولن أتضايقَ من وجوده، فالمكانُ أيضاً مكانُه.

وما إن انتهى إبراهيم من جملته حتى دخلتْ زوجتُه صفية، لتتفاجأَ هي الأخرى بوجود خالتِها حسنة، لتنطلقَ بسرعة إليها وتقبِّلَها مرحِّبةً بقُدومِها غيرِ المتوقَّع، وعلامات الاستغرابِ تقفزُ من أعلى وجهِها.

خرج إبراهيم يريد استنشاق بعض الهواء اللطيفِ الَّذي ينبعث من المزرعة، وابتلاعِ صدمةِ إتيان والدتِه الغريبِ والمفاجئ بنفس الوقت، وبيده التمثالان اللَّذَانِ أحضرَتْهما معها، متذكراً تلك المشكلة الَّتي حصلت بينه وبين أخيه قبل عام تقريباً، و الَّتي كانت سببَ انقطاعِ علاقتهما، وتركتْ أثراً كبيراً بداخله، مشكلةُ فجوةٍ لا يمكن إغلاقُها أبداً، و والَدته الَّتي كانت عاملاً مساعداً على كل ما حصل، إلا أنَّه أخذ نَفَسَاً عميقاً، وقام بمحاولة نسيان كلِّ ما جرى والاستمتاعِ باللحظاتِ القادمة، وأن يحظى بإجازة هادئة، بعيداً عن ضوضاء المدينة لأنَّه في مكان بعيد، إلا أن إحساسَه الداخليَّ كان ينبِّئه بغير ذلك.

مرَّ الوقت سريعاً تخلَّلته بعض الأنشطة والألعاب الَّتي قامَت بها عائلةُ إبراهيم، من الاستمتاعِ بالأنشطة والمناظر الطبيعيةِ، وغيرِها من الأمور الأخرى بمشاركة الجميع، ليحلَّ وقت الغروب، لتقوم صفية بسؤال زوجها بهمسٍ وهي تقترب من أذنه:

- خالتي ليست بحالتِها الطبيعيِّة على ما أظنُّ، إنها تُعاني من شيء ما.

قال لها بعد أن اعتدل في جلسته:

- لاحظتُ هذا الأمر منذ الساعاتِ الأولى لقدومِها، وأعتقدُ أن هناكَ موضوعاً ما يشغل بالها... لا تكترثي كثيراً، دعينا نستمتعُ بلحظاتِنا الجميلة، الأمرُ لا يستدعي كلَّ هذا الاهتمام.

هنا صرخت الصغيرةُ فرح بحُضن والدتِها، وراحتْ تبكي مِن دون توقُّف، وازدادَ نحيبُها قوَّةً، لتقول صفية:

- منذ وصولِنا إلى هنا وهي على هذه الحال.

قال إبراهيم:

- أعتقدُ أن أسنانَها هي السببُ، فالأطفال بهذا العمرِ يُعانون من تلك الآلام، ولا يعرفون التعبيرَ عنها إلا بتلك الطريقةِ.

نهضَتْ زوجتُه، وقالت له:

- لِمَ لا تقومُ بتحضير عِدَّةِ الشواءِ لوجبةِ العشاءِ، ريثما أحاول تهدئة ابنتِكَ وإيجاد حلٍّ لها.

هزَّ إبراهيمُ رأسَه بالموافقة، وانطلقَتْ بالصغيرة للداخل.

حل الظلام بعباءتِه السوداء على الجميع، ومنطقةُ المزارع بهذا الوقت تكون شِبْهَ مظلمةٍ، إلا من بعض الأضواء الَّتي تتلألأ مِن هنا وهناك، كان إبراهيمُ وقتَها يتمشَّى في الخارج بين الحقول بعد وجبة العشاء، وفي باله العديد من الأفكار والهواجس، انتبهَ لتوهُّج رآه من بعيد، هناك شيئان يلمعان، وبالتحديد أمام أحد المباني الموجودة في المزرعة، ظنَّ في البداية أنهما مصباحان، لكن ما جعله يتساءل هو أنَّ الضوءين يُنيران وهما على الأرض، وأغلب مصابيح الإنارة معلَّقة، سار نحو مكان التوهُّج ليقتربَ منه، فاختفى كلُّ شيء فجأةً.

فكر قليلاً وقال:

- هل من المعقول أن عينيَّ بدأَتا بخداعي؟ رغم أني متأكِّدٌ أنِّي رأيتُهما يتوهَّجان!

التفَّ حول نفسه يبحثُ عن أيِّ شيء يضيءُ ليُؤكِّد حقيقةَ ما رآه، وبعدها انتبهَ أنه أحدُ التماثيلِ الَّتي شاهدها بيد ولدَيه عندما وصلوا صباحَ اليوم، والَّذي كان يشبهُ الأفعى ذاتَ القرنين، فانحنى لأخذه، وقبل وقوفه اكتشفَ التمثالَ الآخرَ الَّذي كان على هيئة رأس بومةٍ عوراءَ على ما يبدو، ليس ببعيد عن التمثال الأول، ليتساءل قائلاً:

- كيف لتمثالين من الخزفِ أن يتوهَّجا بهذه الطريقة من بعيد، أظنُّ أنَّني كنتُ أتوهَّم.

أخذ المجسَّمَين ومضى إلى المبنى الَّذي تُوجدُ به عائلتُه، والشكوكُ والتساؤلاتُ لا تزال تنخر في عقله نخراً؛ بسبب تلك الأمور الَّتي لم يجدْ لها أيَّ تفسير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

الجميع نِيام، إلَّا صفية وابنتها الصغيرة فرح الَّتي لا تزال تواصل البكاء، والأمُّ تحاولُ بكل طاقتِها إيجادَ وسيلةٍ كي تخفِّفَه، والتي لم تعرف له سبباً، رغم تعبِها وحاجتها للنوم، لكن الأمَّ تبقى ذلك الجنديَّ الَّذي يخوض حروبَاً عاطفية دائماً، تتمنَّى أن تكون بها الضحيَّةَ من أجل راحة أولادها.

وفي أثناء ذلك هدأتِ الصغيرةُ تدريجيَّاً، شعرَت أن الأمور تسيرُ على ما يرام، وأنَّها أخيراً ستنعمُ بقليلٍ من الراحة قبل شروق الشمس، ولمَّا رفعَتِ الأمُّ رأسَها تفاجأتْ بأمر أربكَ حساباتِها؛ كانت والدةُ زوجِها تقفُ عند باب الغرفة وتنظر لها بطريقةٍ مخيفة جدَّاً، هنا قالت بعد أن ابتلعَت ريقَها بصعوبة من هول الصدمة:

- هل تحتاجين لأيِّ مساعدة يا خالة؟

لم تكن هناك أيُّ إجابة من العجوز، كانت فقط تنظرُ إليها بحِدَّة صارمة، دون أن يغمضِ لها جفن، وملامح الوجه جامدة، تقف كأنها جذعُ نخل يابس، شعرُها غير منظَّم، وهيئتُها تؤكِّد أنها بحالة غير طبيعية، شعرت صفية أنَّ خالتَها تتصرف بطريقة مُبهمَةٍ جداً وغير مفهومة.

أعادت مرَّةً أخرى سؤالَها، لكن العجوزَ بقيتْ على وضعها السابق، كانت فقط تنظر بتلك الملامحِ المرعبة، استمرَّت على ما هي عليه لأكثرَ من دقيقة.

قالت صفيةُ مرةً أخرى:

- هل أزعجكِ بكاء فرح يا خالتي؟ إنها الآن هادئةٌ كما تَرَين.

هنا بدأت عينا العجوز تنقلبُ إلى اللون الأحمر المتوهِّج، وكأنَّ شيئاً سيخرج منها، وهي تنظر بغضب شديد، تمسَّكت صفيةُ بكل قوَّتها بجسد ابنتِها لتضمَّها إلى صدرها، وهي تحاول حمايتَها، ولا تعرف لماذا تتصرَّف هذه المرأةُ بتلك الطريقة الغريبة، بينما الخوفُ راح يتسلَّل لجسدها بسرعة خاطفة، شعرَت أنَّ قلبها من شدة ضرباتِه وصل إلى قمَّة رأسِها.

لتتقدَّم بعدها العجوزُ بخطوات بطيئة ثابتة، جحظت عينا صفية وانتفضَ جسدُها، والعجوز ما زالت تقتربُ من السرير، ثم فتحتْ فهمَها وكأنها تريد الانقضاضَ عليها، هنا صرخت صفيةُ، وقفزتْ وهي ممسكةٌ بابنتِها من فراشها، واتَّجهتْ نحو باب الغرفة محاولةً الهروب، بعدما رأتِ العجوزَ تندسُّ تحت لحافها الَّذي كانت تتغطَّى به.

هنا نهض إبراهيم من نومه وهو يحاول أن يفهمَ سببَ هذا الصراخِ الغريب والمفاجئ بنفس الوقت.

قالت له بهَلَعٍ:

- إنها أمُّك يا إبراهيم، تختبئ تحت اللِّحاف!!

علاماتُ الدهشة والتعجُّب بانت على وجهِه وعقد حاجبَيه، يريد أن يستوعبَ ما قالتْه زوجتُه، فمدَّت صفيةُ إصبعَها المرتجف للغطاء المنتفخ تريدُ أن تبيِّنَ لزوجها أن جسدَ أمِّه هو ما يبرز هنا.

تقدَّم الرجل بخطوات متردِّدةٍ، وهناك الكثيرُ من التساؤلات الَّتي بداخله يريدُ أن يرى لماذا تختبئُ والدتُه بهذا الشكل وبهذه الطريقة، رفع الغطاءَ فلم يجد أيَّ شيء.

نظر إبراهيمُ لزوجته بوجه ممتعضٍ واحمرَّ غضباً، صاحَ بها وقال:

- أين أمي يا صفية؟ لا يوجدُ أيُّ شيء!!

قالت زوجته بصوت مهزوز، وقد ظهر على ملامحِها الذهول:

- صدِّقني يا إبراهيم إنَّ والدتَك كانت تقفُ عند الباب، وجهُها مرعبٌ، وعيناها تُشعَّان من الداخلِ كأنهما جمرتان، تقدَّمَتْ ناحيتي ثم فتحَتْ فمَها، وما إن صرختُ حتى اختبأتْ في هذا المكان.

صمتَ قليلاً، وبعدها انطلق مسرعاً إلى الغرفة الَّتي تنام بها أمُّه، ليطرق البابَ عليها، ثوانٍ ثمَّ خرجت والدتُه، وعلى وجهِها معالِمُ النوم، الأمر الَّذي أثارَ حَفيظَتَه من الداخل، وأثارَ استغراب زوجته الَّتي كانت تُرافقُه، فقطعَتْ أمُّه الصمتَ وقالت:

- ماذا بكما؟! ما الَّذي تُريدانِه منِّي في هذا الوقت؟

قال إبراهيم متداركاً الموقف:

- سمعنا صوتَ صراخٍ وظنَّناه قادماً من غرفتِك، وأتينا للاطمئنان عليكِ، اذهبي وأكملي نومَكِ.

ركَّزت صفيةُ على ملامح خالتِها، كانت بالفعل ملامحُ النوم تحيطُ بها، وأن ملابسَها هي نفسها لم تتغيَّر، وشعرُها مبعثرٌ كما رأته قبل قليل، لكن لا يوجد أيُّ دليل يؤكِّد لها أنها مَن كانت موجدةً عند الباب حينها.

قاطعتهم الأمُّ قائلةً:

- أرجوكم تأكّدوا قبل أن تطرقوا الأبوابَ في مثل هذه الساعة من الليل، ألَا تعلمون أنَّني عجوزٌ كبيرةٌ بالسنِّ، وأعاني من بعض الأمراض، وهذا كلُّه يؤثِّرُ على صحَّتي.

أغلقت والدتُه الباب مباشرةً وهي تتأفَّفُ من تصرُّفاتِهم الَّتي وصفَتْها بالحمقاء، التفتَ إبراهيم لزوجتِه وعلاماتُ السخطِ تسيطر عليه وقال:

- كيف تتَّهمين والدتي بهذه الطريقة، يبدو أنَّ بكاء فرح أصابَ عقلك بشيء، وجعلَك تتوهَّمينَ أشياءَ غيرَ موجودة!

تركَها وذهب لفِراشه، وهو يتمتمُ ببعض الكلمات غير المفهومة.

لحقَتْه صفيةُ تريد تأكيدَ ما قالته، فقالت له:

- لم أتوهَّم أبداً يا إبراهيم، ومتأكِّدة من كلِّ ما شاهدتُ، عينايَ لا تكذبان أبداً، رأيتُها كما وصفتُها لك، وبعدما تقدَّمَت ناحيتي وأفزعتْني قمتُ بالصراخ، ومِن ثَمَّ اندسَّت في الفراش.

أجابها إبراهيم وقال:

- كيف تندسُّ في فراشك، ووالدتي بغرفتِها غارقةٌ بالنوم؟ وأنتِ قد رأيتِ وجهَها المنتفخَ منه، وكيف لعجوز مثل أمي أن تقومَ بكلِّ هذه الأعمال بهذه السرعة دون أن نشعرَ بها؟!

لم تُجب صفيةُ؛ لأنها لا تملكُ أيَّ دليل قاطع يؤكِّد ما رأتْه، تركَها إبراهيم وهو يقول

- دعينا الآن نخلد إلى لنوم، وغداً نتحدَّث ونرى إن كان ما تقولينه صحيحاً، أم أنَّها مجرَّد أوهام.

ذهبَتْ لفِراشها متحيِّرةً، تريد إيجادَ إجاباتٍ واضحةً لكل ما حصل قبل قليل، رغم أنها من الداخل متأكِّدةٌ من كل ما شاهدَتْه، لكن السؤالَ هنا كيفَ حصل كلُّ هذا بهذه السرعة الفائقة؟

لم تذقْ عيناها النومَ بهذه الليلة، تتقلبُ على الفراش، وهناك ألفُ فكرة وهاجسٍ يلعبان برأسها، وبيَقِينِها أنَّ كلَّ ما حدثَ حقيقيٌّ، ثم تفكِّر هل كانت واهمةً في ما رأت، كما قال لها زوجُها؟ السؤال الآخر هنا كيف لعجوزٍ مثلما قال إبراهيم أن تقومَ بكل هذه الأشياء بهذه السرعة؟ طردَتْ صفيةُ كلَّ تلك الهواجس وحاولت نسيانَ كل ما حصل؛ لأنها تعلمُ أنَّ عليها الاستيقاظ صباحاً من أجل تجهيز الكثير من الأمور.

كانت الأجواء هادئةً، إلا من نباح ذلك الكلب الأعور الّذي لا يزالُ ينبحُ بلا هَوادة وبدون أيِّ سبب يُذكَر، وهي طريقتُه الّتي اعتادَتْ عليها العائلة.

وما إن استسلمتْ صفيَّةُ للنوم، حتى استيقظتْ ابنتُها الصغيرةُ فرح، وعادت للبكاءِ مرةً أُخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

حلَّ الصباحُ بنسائمه الدافئة، وأفاق جميعُ أفراد الأسرة بما فيهم الأمُّ حسنة، والكلُّ يتأهَّب من أجل الانطلاق في هذه المزرعة الكبيرة والاستمتاعِ بأجوائها، الأطفالُ يلعبون في الخارج بعد أن انتهَوا من الإفطار، وإبراهيم يتناقشُ مع زوجته حول بعض الترتيبات والتجهيزاتِ لوجبة الغداء، وكانت العجوزُ تجلس بهدوءٍ من دون أن تنطقَ بكلمة، فيما كانت صفيةُ تنظرُ إليها بتركيزٍ عالٍ، وتتذكَّرُ ما حدث ليلةَ البارحة:

- والدتُك تتصرَّفُ بغرابة شديدة اليوم.

هذا ما قالتْه لزوجِها..

التفت إليها وقال:

- اخفضي صوتَك قليلاً، لا أريد أيَّ إزعاج، أنا هنا من أجل أن أرتاحَ قليلاً، وليس من أجل إثارة المشاكل، أرتِّب أفكاري، وأعيد ترتيبَ نفسي، واستنشق هواءً نقيًّا، لا تركِّزي كثيراً على تصرُّفاتها، سنمكثُ هنا فترةً بسيطةً وبعدها سنعود إلى منزلنا... تحمَّلي قليلاً.

لم يُعجِبْ صفيةَ ردُّ زوجها، الذي لم يطفئ فضولَها، ثم طلبتْ منه الذهابَ للتَّمشِّي في ما بين الحقول، بعد أن انتهوا من وجبة الإفطار.

وقبل النهوض قالت والدتُه لصفية:

- اتركي فرحَ معي فأنا مشتاقةٌ لها.

قالت صفية بتوجُّس:

- أخشى أن تضايقَكِ يا خالة ببكائِها المستمرِّ.

ردَّت عليها خالتُها:

- لا تقلقي فأنا معتادةٌ على ذلك، وأعرف كيف أتصرَّفُ معها، وتذكَّري أنَّني أمٌّ، وأن زوجَكِ أحدُ أطفالي، لا عليكِ، أعطني هذه الفتاةَ الجميلة، واذهبا أنتما حيث شئتُما.

طلبت من العاملة البقاءَ مع خالتِها، ثمَّ انطلقا وهما يتناقشان في ما حصل ليلةَ البارحة، فالزوجُ كان يؤكِّد لها أنَّ ما حدث مجرَّدُ أوهام، فيما كانت الزوجةُ تؤكِّد أن كلَّ ما حصل حقيقيٌّ ورأته بعينَيها، وأنَّ والدتَه تتصرَّفُ على غير عادتها، وأثناءَ حديثِهما سمعا صوتَ صرخةٍ مدوِّيةٍ من داخل المزرعة.

فزع الاثنان من ذلك الصوت، وانطلقا يبحثان عن مصدر تلك الصَّرخةِ، والتي من الواضح أنَّها من ناحية بِركة الماء، وذهبا مسرعَين إليها، ليجدا العاملة قد غطستْ بنصفِ جسدها في تلك البركة، بينما كانت ترفعُ يدَيها عالياً وهي تحاولُ إبعادَ الصغيرة فرح عن الماء، فيما كانت العجوزُ حسنة، أمامَهم تحاولُ إنقاذَهم، وتردِّدُ تلك الجملة:

- هذه العاملةُ الحمقاءُ كادت أن تقتل فرح؛ بسبب عدم انتباهِها لها وانشغالِها بهاتفها.

هرع إبراهيمُ لإخراج ابنتِه الصغيرة والعاملة الآسيويَّة، والَّتي بمجرَّد خروجِها أجهشَت بالبكاء؛ خوفاً مما حصل لها من أمرٍ لم تستطع التعاملَ معه، وطوالَ فترة أنينِها كانت تنظرُ ناحيةَ العجوز بِغِلٍّ وغضب، وكانت تردِّدُ كلماتٍ غيرَ مفهومة بسبب تلعثُمِها، حاولتْ صفيةُ هنا تهدئةَ الموقف؛ كي تفهمَ ما حصل، لكن حسنة تدخَّلت بسرعة وقالت:

- تَرْكُ الأطفال عند هؤلاء العاملاتِ خطأٌ كبير، كادت أن تقتلَ الصغيرةَ بسبب عدم الانتباهِ إليها.

قاطعها إبراهيم وقال:

- ما الَّذي وقع يا أمي؟

قالت والدته:

- هذه المهمِلةُ كانت تسير قريباً جداً من البركة، بيَدٍ تحملُ صغيرتي فرح، وباليد الأُخرى هاتفَها المحمولَ، وحذَّرتُها كثيراً كي تبتعد؛ لكي لا تنزلقَ قدمُها أو تتعثَّرَ، لكنها كانت لا تأبهُ لكلامي، وانزلقَت قدمُها كما توقَّعتُ وسقطتْ في الماء ومعها فرح، والحمدُ الله أنَّ البركة غيرُ عميقة، وإلَّا لكان حدثَ ما لا يُحمَدُ عُقباه.

بدأتِ العاملةُ تتحدَّث بصوت عالٍ، وترى من خلال تعابيرِ وجهها ويديها كأنها تنفي كلَّ ما قالته العجوز، ولكن بسبب النَّحيبِ لم يُفهَم منها شيءٌ، انتبهتْ صفيةُ لكلِّ ما يجري، وقالت للعاملة:

- اهدئي قليلاً لنفهمَ ما تقولين.

قالت حسنة مقاطعةً:

- إنها تحاول تبريرَ فِعلتِها، عليكما أن تُشدِّدا على هذه النوعيَّة من العاملات كي لا تهملَ عملَها، ولا تتركا الصغيرةَ لديها كثيراً.

لم تأبهْ صفيةُ لكلام خالتِها، وطلبتْ من العاملة أن تكفَّ عن البكاء، من أجل أن تفهمَ كلامَها.

صمَتَتِ العاملةُ، وبعدَها بدأت تقول بلهجة عربية مُكسَّرة:

- الخالةُ حسنة طلبت منها أن تحمل فرح، ويسيرا بها بالحديقة، وكانت تُصرُّ على الذهاب ناحية البركة، ثم قالتْ: إنَّها كانت تطلبُ منِّي أن أضعَ رجلَي الصغيرةِ في الماء لتستمتع، وفعلْتُ ما طلبَتْه منِّي، ولكن ما إن وضعتُ قدمَي فرح في الماء حتَّى شعرتُ أن هناك يدين قامتا بدفعي بقوَّةٍ من الخلفِ داخل البركة، ولم يكن خلفي سِوى هذه المرأة، لم أستطعْ أن أقاوِمَ فاختلَّ توازُني وسقطتُ داخلَها، ولولا أنها غيرُ عميقة لكُنَّا غرقنا أنا وفرح، وكل ما قالَتْه قبلَ قليل كذبٌ وافتراءٌ.

صرخت العجوزُ حسنة بأعلى صوتِها وقالت:

- إنَّ عاملتَكَ تُكذِّبُني، وأنتَ صامتٌ لا تتحدَّث، كيف لعجوزٍ مثلي أن تقومَ بعملِ مثل هذا؟ لماذا أريدُ أن أقذفَ بهذه الملعونة في الماء ومعها حفيدتي؟ إنها تحاول تخليصَ نفسِها مِن إهمالِها واتِّهامِي.

قاطعتَها العاملةُ مرَّةً أخرى وقالت:

- إنها تكذبُ تكذبُ... وعادتْ للبكاء مرةً أخرى.

لم تنطق صفيةُ بأيَّة كلمة، وهي تعلمُ أنَّ عاملتَها من العاملات المخلِصاتِ، وليست عاملةً جديدةً، وتعرفُها جيِّداً، ومتأكِّدةٌ من إخلاصِها، وهي مستعدةٌ أن تضحِّيَ بروحها على أن لا يصيبَ أبناءَها أيُّ مكروه، فكيف لها أن تقومَ بهذا العمل غير المنطقيِّ؟! ولماذا تريد الانتقام؟!

وعند هذا الحديث كانت الخادمةُ والعجوزُ تتبادلان الاتِّهامات، وهنا صرخَ إبراهيم بأعلى صوتِه، وطلب من الجميع السكوت؛ لأنه هو الآخرُ تائهٌ ومُحتارٌ، فلا يريدُ أن يكذِّبَ والدتَه، ويثقُ هو الآخر كلَّ الثقةِ بتلك العاملة، كونها قامت بتربيةِ أبنائه طارق وناصر، فكيف لها أن تقومَ بهذا الفعل الغبيِّ؟!

ران الصمتُ المكانَ بعد سخطِ إبراهيم، وطلبَ مِن أمِّه والعاملةِ التوجُّهَ إلى المبنى الموجودِ بالمزرعة، وأمرَ زوجتَه أن تأخذَ ابنتَه وتمضي، قام الجميعُ بتنفيذ أوامره، وسطَ حالةٍ من الارتباك والتوتُّر، وضع الرجلُ يدَه على رأسه، وبدأ يفكِّر: لماذا يحدثُ كلُّ هذا؟ ولماذا والدتُه تتصرَّفُ بهذه الطريقة؟ وكيف لتلك العاملةِ المخلِصة أن تقومَ بتلك الفِعلة؟

المصيبةُ أن التَّصرُّفاتِ الَّتي تقوم بها والدتُه منذ ليلةِ البارحة مُريبةٌ، وهي المتَّهمةُ الوحيدةُ بتلك المشاكل، والمثيرُ في الموضوع أنَّه لا يوجدُ دليلٌ يُؤكِّد

تورُّطَها بهذا كلَه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

- كلُّ ما في الأمر أنها أمُّك ولا تريد إلصاق أيِّ تهمة بها، خاصةً وأنَّ الوقائعَ تدلُّ على أنها وراء كل الأحداثِ الَّتي جرت مؤخَّراً، والأدهى من ذلك إتيانُها الغريبُ إلى المزرعة دون سابقِ إنذار.

هذا ما قالته صفيةُ لزوجِها، عندما جلست معه في غرفتِهم، بعد أن حلَّ الظلامُ على المكان، كانت المسكينةُ متحفِّزة لأيِّ شيء يبدرُ من تلك العجوزِ الغريبة الأطوار.

وأردَفَتْ حديثَها قائلةً:

- عليكَ مراقبتُها جيِّداً، ألا تخافُ أن تُلحِق الضررَ بأيِّ أحدٍ منَّا، فتصرفاتُها غير مفهومة.

لم يُجبْها إبراهيم بأيِّ شيءٍ فقط كانت التفاتةً صغيرةً إليها وهزَّ رأسَه بالموافقة، وبعدها صمت، يقلِّبُ كلَّ كلمة قالتْها بذهنه، يريدُ معرفة الحقيقة، يريد إجاباتٍ واضحةً على تلك الأحداثِ السابقة.

- من الغدِ سنغادر هذا المكان!

هذا ما قاله لزوجتِه بعد سكوتٍ طويل.

أجابتْهُ:

- وهل ترى هذا حلَّاً؟

ردَّ بصوتٍ متعَبٍ:

- كل ما أريده هو أن أبتعدَ عن المشاكل، وأعتقدُ أنَّ العودةَ لصخب الحياة أفضلُ من الجلوس هنا وانتظارِ المفاجآت غير السَّارَّة الَّتي لا تنتهي معكما.

قالت له:

- هل ترى أني أنا من يُثير هذه المشاكل! أنت تعرفُني جيِّداً أنا مثلكَ أبتعد عن أي شيء يثيرُها، كلُّ ما يحدثُ بسببِها هي، صدِّقني هناك شيءٌ غريب يجري بطريقة غير طبيعية.

- بعد أن يتناول الأولادُ عشاءَهم، أغلقي البابَ جيِّداً قبل أن تخرجي، لا أريدُ أن يتكرَّر ما حدث ليلةَ البارحة، كلُّ ما أريدُه منك أن تتعاملي مع أيِّ تصرُّف تقوم به والدتي ببرودٍ وتجاهلٍ، لنمضيَ الساعاتِ القادمةَ بأمان، ونعود جمعياً إلى لمنزل، من دون أن يقع علينا أيُّ مكروه.

هذا ما قاله إبراهيم لها، متجاهلاً كلامها..

كرَّرَتْ حديثَها مرَّةً أخرى بغِلظةٍ أكبر:

- أنتَ تعلمُ جيِّداً أنها السببُ الرئيسيُّ وراءَ كل مشاكِلِكَ مع شقيقِكَ أسامة، بسبب تفريقِها الكبير بينك وبينه، وحبِّها الشديد له، وتتناساك تماماً، تريد أن تعاقبَكَ بسبب حبِّكَ وتعاملكَ مع أخيك نوحٍ المرميِّ الآن في مستشفى الطبِّ النفسي، ولا يعلمُ عنه أحدٌ أيَّ شيء، ولم تكلِّفوا أنفسَكم بالسؤال عنه.

لم يتحمَّل إبراهيمُ تلك الكلماتِ الجارحةَ الَّتي خرجت من زوجتِه، إنها تقوم بلَكمِ الجروحِ القديمة، وإعادةِ أحياءِ آلامِها، وويلٌ لكل من يُعيدُ للروحِ ذكرى قديمة، وينبش جرحاً مدفوناً، بعدها قال بعصبية:

- النساءُ لا يتغيَّرْنَ على مرِّ العصور، ويستمتعون بخلطِ الأمور ببعضها البعض، دون مراعاةِ شعورِ الآخرين، لكنِّي لن أكترثَ لما تقولينَ، وسأذهب للنوم في الغرفةِ الأخرى، لا أريدُكِ أن تتمادَي بكلماتِك تلك، كل ما أريدُه أن يمضيَ هذا اليومُ بسلام، وسأعرف بعدها جيِّداً كيف أختارُ من أحكي له أسراري.

تركَها وذهبَ وصَفَقَ البابَ من خلفه، شعرتْ صفيةُ ببعضٍ من تأنيبِ الضمير، بسبب ما قالَتْه، وأدركَتْ جيِّداً أنه لن يقبلَ بأيِّ كلمة أخرى، فقرَّرتِ السكوتَ والاعتذارَ منه صباحَ الغد.

مرَّت الساعاتُ التالية هادئةً حتى نام الجميع، كانت الصغيرةُ بحضنِ والدتِها الَّتي تتصارعُ مع النوم، متحفِّزةً لأيِّ حدث يطرأ من خالتِها، هنا بدأ أنفُها يستنشقُ رائحةً غريبةً جداً، غير معتادة عليها بهذا الوقت.

نهضتْ من مكانها قاصدةً المصدرَ الَّذي تحسَّسَه أنفُها، إنَّها تشمُّ رائحةَ دخانٍ قريبةً جداً، وبدأت تتساءلُ: هل من المعقولِ أنها تصدرُ من مزرعتِنا؟ هنا فطِنتْ لشيء مهمٍّ... أولادُها طارق وناصر، وانطلقت فوراً نحو غرفتِهم، وفتحت البابَ واكتشفَتْ أنهما غيرُ موجودَين.

راح قلبُها يخفقُ بكل ضراوة، وجسدُها لا يكاد أن يحملُها، أين ذهب الأولادُ في هذا الوقت؟ هل حصل لهما مكروه؟ ركضتْ مسرعةً إلى غرفة زوجِها، ثم فتحت البابَ مباشرةً، لتوقظَه قائلةً:

- إبراهيمُ الولدان غيرُ موجودَين في غرفتِهما!

أجابَها قائلاً بعينينِ ناعستَينِ:

- هل أنتِ متأكِّدة مما تقولين؟

قالت بتوتُّر:

- تعالَ معي وانظرْ بعينكَ، أنا قلقةٌ عليهم كثيراً.

قام إبراهيم من مكانِه وتوجَّه لغرفتهم، وبالفعل لم يجدْ شيئاً، هنا تذكَّرتْ شيئاً وقالت:

- ألا تشمُّ رائحةَ حريق؟!

بدأت حاسَّةُ الشمِّ بالاستيقاظ بعد حالة الارتباكِ الَّتي حصلَتْ له، ليتأكَّد مما تقولُه، كانت الرائحةُ قويَّةً جداً، لكنَّ الاثنينِ كانا مَشغولَي البالِ بسبب غياب أولادهم.

خرج من المبنى الصغير، وبدأ يبحثُ عن ذلك الدخان والنار، وأصبحَ تفكيرُه مشتَّتاً، لا يعرف كيف يتصرَّف، لاحظَ أنها تأتي بكثافة من نحوِ المخزن الصغيرِ القاطن خلفَ المبنى الَّذين يقيمونَ فيه، هرولَ إليه بسرعة كبيرة، وما إن وصل إلى هناك تيقَّنَ أن الرائحةَ تأتي من البُنيانِ الصغير.

عرفَ أنَّ هناكَ حريقاً يشتعل، أمسكَ هاتفَه النقَّال، وقام بتشغيل إضاءَتِه يريد التأكُّدَ من طريقه، همَّ بفتح البابِ واكتشفَ أنَّه مغلقٌ، ذهب ناحيةَ النافذة يريدُ التأكُّد من حجم النار، لكنَّ الزجاجَ كان مُعتِماً وأعاقَ نظرَه للداخل، ولم يجد أمامَه سِوى كسرِه، فأخذَ حجراً متوسِّطَ الحجمِ كان بالقرب منه، ثم قذفَه بقوة، وحاول فتحَ النافذة من الداخل بعدَ كسرِهَا، وقبل أن يفعلَ ذلك سمع صوتاً كان قادماً من وسط المبنى، لينتبهَ أنَّه ولده طارق يبكي بحُرقةٍ وهو يُناديه مستنجداً.

قال له مستفسراً:

- ما الَّذي تفعلُه هنا؟ أخرجْ بسرعة من هذا المكان الخَطِر!

أجابَه ولدُه ناصر:

- لا نستطيعُ يا أبي! إنَّنا مكبَّلان.

صُعِقَ إبراهيم بعد سماع صوت ولدِه الثاني وقال:

- أنت أيضاً في الداخل!

بدأتْ أنفاسُ إبراهيمَ بالتصاعد، والتوترُ وصلَ معه إلى أبعد حدٍّ، شعرَ أنَّ يدَيه ترتجفان، النارُ تكبرُ في الداخل، وأبناؤه معرَّضون لخطر وَشيك، أكبرُها الاحتراقُ، وأقلُّها الاختناق، وكلاهما يؤدِّيان إلى الموت، في هذه اللحظةِ وصلَت صفية لتقولَ له:

- لا أثرَ للأولاد في المزرعة!

مدَّ إبراهيمُ إصبعَه المرتجفَ إلى النافذة، وكانت الكلماتُ مختلجةً بين شفتَيه؛ لأنه بحالة فزعٍ مَهولة، كونه يعلم جيِّداً أنَّ أولادَه في مواجهة خطرٍ كبير، لم تفهمْ صفيةُ تلك الإشارةَ في البداية، إلَّا أنَّها سمعت صوتَ ولدَيها وهما يستغيثان من الداخل.

وفي هذه اللحظة فهمَتْ ما أشار إليه، وبدأت ملامح الخوف والذُّعر تكتسيانِ وجهَها، وراحتْ تصرخُ بانفعال، وتحاول عمل أيِّ شيء مِن أجل إنقاذهم، تقدَّمت ناحية البابِ لكنها صُدِمَتْ أنه مغلق بإحكام، راحت تبكي بارتعاب، فزادتْ حالةُ الهلع الَّتي يمرُّ بها إبراهيم، كانت فتحة النافذة صغيرةً جداً، ومن الصعبِ أن يدخلَ منها أيُّ أحد بسبب الحديد المسلَّح الَّذي كان يُحيطُ بها مِن كل جانب، كان طوال الوقت يبحثُ عن أيِّ شيء قوي يقوم بتحطيم ذلك الباب الحديديِّ المُوصَد.

فيما صفية كانت تطلبُ من أولادها التماسُك وعدمَ الاستسلام؛ حتى يجدا طريقةً لإخراجهم من هذا المأزق، هنا تذكرتْ شيئاً، وبعدها سألتْ الولدَين:

- مَن جلبكم لهذا المكان وقام بتكبيلكم؟ هل تعرفان شكله؟

لتحطَّ الصاعقةُ على رأس إبراهيم وصفية عندما سمعا الإجابةَ من ناصر:

- إنَّ من أتى بنا إلى هنا جدَّتُنا حسنة، الَّتي طلبتْ منَّا مساعدتَها لنقلِ بعض الحاجيَّات إلى هذا المكان، لكنَّها تصرفَت بغرابة، وقامت بتقييدِنا بهذه الصورة، ثم أشعلَت تلك النار، وهي تتحدَّثُ بكلام لم نفهمْهُ.

بدأ الاثنان ينظران إلى بعضهما البعض ببلاهة، مذهولَين مما سمعا، قال إبراهيم متسائلاً:

- هل جدَّتُكم معكم في الداخل؟

ردَّ أحدُهما وقال:

- نعم إنَّها موجودة تنظر إلينا بنظراتٍ حادَّة، وطوال الوقت تضحك، وتقول لنا: "ستموتان الآن! سأعذبُ قلب أهلكم بموتكم بتلك الطريقة البشعة".

كانت الصدمةُ تزدادُ وتتجلَّى بوضوح على وجهَي صفيةَ وإبراهيم، كيف يحدثُ كل هذا من الأمِّ حسنة؟! لماذا تتصرَّف بهذه الطريقة الشريرة؟ كانت الصغيرةُ فرح ملقاةً على الأرض وهي تبكي، إلا أنَّ أمَّها غيرُ آبهةٍ لها بسبب الوضع المأساويِّ الَّذي وقعوا به، فهم مقبلون على كارثة في حالٍ لم يجدا حلاً لإخراجهما، وكان الكلبُ الأعور ينبح من بعيد عند البوابة الرئيسية للمزرعة، قالت هنا صفية:

- الأولاد في خطر، حاول أن تتصلَ بالطوارئ، لتأتي المطافئ وتنقذَهما من هذا الموقف.

أجابها قائلاً:

- منطقتنا بعيدةٌ جدَّاً، ومن الممكن أن تتأخَّر المطافئ بالوصول، ويصيبَ الوالدانِ مكروه، دعينا الآن نجدُ طريقةً نخرجُهم بها، لكنَّ صفيةَ لم تكترثْ لكلامه، وقامت بالاتصال مباشرةً.

في هذا الوقت رنَّ هاتف إبراهيم، فلمَّا قرأ الاسمَ الَّذي ارتسمَ على شاشتِه، شعر بالغيظِ الكبير ممَّا رأى، فإنَّ المتصلَ هي والدتُه، تحاولُ قتل أولاده، وتقومُ بالاتصال عليه بكل هذه الوقاحة، وما إن ضغطَ على الزرِّ الأخضر للإجابة حتى سمعَ صوت أمه الهادئ من الجانب الآخر:

- هل أنتَ وعائلتُك بخير؟

كان الأمر يثيرُ الاستفزاز، كونها في الداخل تريدُ إحراقَ أبنائه، والآن تريدُ التأكُّدَ من سلامتهم، ليردَّ عليها بصوت عالٍ:

- تريدينَ قتلَ أولادي وتسألينَني إنْ كنتُ بخير أم لا؟! أرجوكِ يا أمِّي أخريجهم، ولن أقوم بفعل أيِّ شي لك.

أجابَته والدتُه مستفسرةً:

- مَن هم الَّذين تريدُ منِّي أن أخرجَهم؟

قال لها إبراهيم بصوتٍ شِبهِ باكٍ:

- تكفي تلك الألاعيبُ يا أمِّي، أرجوكِ أخرِجي طارق وناصر من المخزن، الحريقُ في الداخل يزداد، ولا يوجدُ متَّسعٌ من الوقت.

أجابَتْه والدتُه بصوتٍ متفاجئ:

- يا ولدي أنا في منزلي وأنت في المزرعة، كيف لي أن أُخرجَهم، وتتَّهمُني بمحاولةِ قتلهم؟!

وراحتْ بعدها تبكي بصوتٍ عالٍ، هنا أخذَ أسامةُ الهاتفَ من أمِّه وقال:

- ما الَّذي قلتَه لوالدتكَ لتبكي بهذا الشكل غير المفهوم؟

أجابَه إبراهيمُ بنفس الصوتِ الباكي وقال:

- أولادي يحترقون في مخزن المزرعة يا أسامة، بعد أن حبسَتْهم أمي في الداخل، والنارُ تشتعلُ بسرعةٍ كبيرةٍ والدُّخانُ يزداد.

قال له أسامة بدهشة:

- كيف لوالدتي أن تقومَ بكل ذلك، وهي في المنزل لم تخرجْ منه منذ يومين بسبب حالتِها الصحيَّة؟!

ردَّ عليه إبراهيم بعصبيَّة قائلاً:

- يكفي كذباً والدتي موجودةٌ معنا منذ ليلة أمس بالمزرعة، كيف تقولُ إنها بمنزلها؟!

لم يقتنع الاثنان بكلام بعضِهما البعض، بينما النارُ تزداد ضراوةً، من الجانب الآخر قام أسامةُ بتشغيل الاتصال المرئيِّ؛ ليرى إبراهيمُ أمَّه وهي جالسة تبكي في البيت.

أصابَتْه حالة من الدهشةِ والذهول، هل معقولٌ ما تراه عيناه، رأسُه يكاد ينفجرُ من الفوضى الَّتي حلَّت به، والأحداث المتعاقبة والغريبة الَّتي جرتْ خلالَ اليومَين الماضيين.

والسؤال هنا: مَن تلك العجوزُ الَّتي كانت معنا منذ ليلتين؟ ووالدتي حسبَ كلام أسامةَ لم تخرجْ من بيتها؟ لم يكترثْ لتلك التفاصيل المحيِّرةِ، وكلُّ همِّه حينها كيفيَّةُ إنقاذ أولاده.

لتقوم أمُّه بتوجيه الكاميرا ناحيتها وقالت..

- ردِّد تلكَ الكلماتِ يا إبراهيم، ونفِّذْ كلَّ ما أطلبُه منك، الوقتُ لا يُسعِفُنا، عجِّل وقُل ما سأمليه عليكَ لتنقذَ أولادكَ من هذا الخطر.

هزَّ رأسَه، مستعدَّاً لتنفيذ كلِّ ما تقولُه، حتى لو طلبتْ منه أن يقتلَ نفسه، وقالت له:

- سيزول الخطرُ عندما يكفُّ الكلبُ عن النُّباح، ردِّدْ تلك الكلماتِ، وسينتهي كلُّ شيءٍ.

وأخذَتْ تقولُ كلماتٍ وبعضاً من الآيات القرآنيَّة، وإبراهيمُ يردِّدُ من بعدِها باستسلامٍ تامٍّ، مرَّتْ دقيقتانِ على انتهاءِ أمِّه من ترديدِ تلك الكلمات، هنا كفَّ الكلبُ عنِ النُّباح، والنارُ الَّتي كانت تستعرُ في الداخلِ انطفأتْ بالكامل، ولم يبقَ لها أيُّ أثر، وفُتِحَ الباب الحديديُّ الَّذي كان مُغلقاً قبل قليل بسرعةٍ كأنَّ أحداً قام بفتحه تلقائيَّاً.

رمى إبراهيم الهاتفَ بعيداً وانطلقَ هو وزوجته إلى الداخل، ليجدَ وَلَدَيْهِ مربوطَين بمهارة عالية، وهما يبكيان بخوف، ليفكَّ وَثاقَهما بيدَين مرتجفتَينِ،

وقام باحتضانهما، يريد أن يُشعرَهما بالأمان الّذي افتقداه أثناء الحادث، فيما صفيَّةُ راحت تقبِّلُهم وتمسحُ على رأسيهما بكلِّ حب، وهي تنتحب.

بحث إبراهيم حولَه يريد أن يرى والدتَه الَّتي قامَتْ بفعل كلِّ هذه الأعمال، لكنَّه لم يجد أيَّ شيء، سِوى بعض البقع الغريبة الشكل الَّتي انتشرَت في المكان، وبعدها قال:

- هل جدَّتُكما كانت معكما هنا؟

أجابَه طارق وهو يتنفَّسُ بصعوبة:

- كانت تجلس في ذلك المكان، وهي تتحدَّث بصوتٍ خشنٍ يُشبِهُ فحيحَ الأفعى، ووجهٍ مرعبٍ، وعيناها قد انقلبتا للون الأبيض، لم تكن جدتي يا أبي، إنَّها كائنٌ مَسْخٌ، كائنٌ غيرُ بشريٍّ، كانت طوال الوقتِ تتقافزُ بالمكان، كأنَّها قردٌ يستعرضُ مهاراتِه بالقفز والمرونة، ومن المستحيل أن تقومَ جدَّتي بهذه الحركاتِ لأنها عجوز.

طلب من أولاده النهوضَ، لكنَّ صفية أمسكَت يدَ زوجها وقالت:

- إن الأولادَ يصفون منظر والدتِك عندما أتتْني ليلةَ أمس عندما كانت تقفُ أمام باب الغرفة، وبعدها ظهرتْ ملامحُ غريبة على وجهِها، وانقلبَت عيناها لذلك الشكل المخيف، تقدَّمَت إليَّ بسرعة، وكادت تُلحِقُ بي وبابنتكَ الضررَ، لكنها لم تستطيع بعد أن صرختُ، واختبأتْ تحت اللِّحاف.

قاطعها إبراهيم قائلاً:

- إنها ليست أمي يا صفية! هناك شيءٌ غريبٌ يحدث هنا.

أجابتْه بذعرٍ:

- ماذا تقصد بأنها لم تكن أمَّك؟!

قال لها محاوِلاً شرح الأمر باختصار:

- والدتي في المنزل منذ يومين؛ لأنها متوعِّكةٌ وصحتُها ليست على ما يُرام، هذا ما قاله لي أسامة، وتأكَّدتُ منه بأمِّ عينيَّ.

قالت برَهبة شديدة:

- تقصد أنَّ مَن كان معنا منذ يومَين...

ثم بعد ذلك سكتَتْ، بعد أن ابتلعَتْ ريقَها، وبدأت تردِّدُ المعوِّذات والآياتِ القرآنيَّةَ والأدعيةَ، ثم قالت:

- ألم تلاحظ شيئاً؟ أين النارُ الّتي كانت تنتشرُ في المكان قبل قليل؟ لا أرى لها أي أثراً! كما أن الحاجيات الموجودة في المخزن لم تتأثَّر كثيراً، أكادُ أجنُّ يا إبراهيم! ما سبب كلِّ هذه الأحداث الغريبة الّتي تحدث لنا؟ لم أجد لها تفسيراً منطقيّاً!

هدَّأ إبراهيمُ مِن رَوعها، وطلب منها القيامَ بجمعِ أمتعتِهم، والرحيل من هذا المكان، نفَّذتْ صفيَّةُ وأولادُها والعاملةُ ما طلبَه زوجُها، للهروب من هذه المزرعة المخيفة، وقبل خروجهم سمعوا صوتاً بشعاً جداً قادماً من الفراغ، لكنَّهم لم يعرفوا مَن يتحدَّث، صوتٌ لم يحدِّدوا من أين يأتي:

- لن أتركَكم أبداً، سأبقى في هذا المكان، لأقضيَ عليكم يا أبناءَ حسنة واحداً تلو الآخر، لم تكتم سرَّنا؛ لذا لا بدَّ لها أن تتحمَّل انتقامَنا، لن ترتاحي يا حسنة بعد اليوم، مَن جلَبَنا أحرقَتْه النارُ، ونحن الآن أحرار، نسير بكل مكان، وبأيِّ زمان، ومَن حضَّرنا يتحمَّل.

كان صوتاً متوحِّشاً، اقشعرَّت أبدانُهم هلعاً منه، بهذا الوقت كان هاتف إبراهيمَ يرنُّ بإلحاح، ليجد أنَّ المتصلَ هو شقيقُه أسامة، أجابه إبراهيمُ بتردُّد، ليسمعَ أخاهُ يردُّ عليه والعَبَرات تتحشرجُ في صدره:

- والدتي سقطَت يا إبراهيم! ما الَّذي حدث بينكم؟ لا أدري ما بها، بعد أن أنهتْ مكالمتَها معك، بدأت تتحدَّثُ بأمور غريبة لم أفهمْ منها أيَّ شيء، تردِّدُ قائلةً: "الحجران بالعين، والعينُ بالحجرَين"، لم أستوعب مقصدَها، ثمَّ سقطت مباشرةً على الأرض وهي ترتجفُ بعنف أمامي، أفهمْني ما الَّذي يحدثُ بالضبط.

قال له إبراهيم وهو يحاول تهدئتَه:

- من المستحيل أن تفهمَ أيَّ شيء في الوقت الحاليِّ؛ لأن الَّذي يجري أمر من الصعب تصديقُه، أكاد أجنُّ يا أسامة، دعني الآن أجمعُ أغراضي، وأخرج من هذه المزرعة اللعينة.

أغلق إبراهيمُ الهاتفَ، وطلب من زوجتِه الخروج بسرعة من هذه المكان، وجلب أهمَّ الحاجيات، وانطلقوا مسرعينَ نحو السيارة، تاركينَ كلَّ شيء خلفَهم، وصوتُ نُباح ذلك الكلب لم يتوقَّف ولا لحظة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

- هذا كلُّ ما حدث معي يا عدنان، ولا تزال والدتي بحالةٍ غيرِ طبيعية، نائمة طوال الوقت، وعندما تستفيق تكون بحالة شرودٍ، وكأنها في مَلكوتٍ آخر، مركِّزة نظرَها على مكان واحد، وتردِّدُ دائماً تلك الكلمات:

- "السرُّ يقع في العيون، ستجدون الحقيقةَ بها، وستعرفون أنَّها الشيء الوحيدُ الَّذي لا يعرف الكذب، لقد تحرَّرَ ما كان يسكنُها".

هذا ما قاله لي إبراهيم، حينما جاء إليَّ مستنجداً في ذلك اليوم، وبعد أسبوع من حادثة "جميلة الممسوسة"، وبالتحديد عندما ظهر لي الشيخُ زهران وقال لي أن شأني قد علا وصِيتي قد ذاع، والكلُّ سيلجأ إليَّ.

وإبراهيم أولُ من لجأ إليَّ طارقاً على بابي يطلب مني مساعدتَه، بعد أن حكى لي قصتَه مع تلك المزرعة، والحوادثَ الَّتي عاشها في ذلك المكان، وحالة والدته الَّتي لم يجد لها أيَّ تفسير.

كنتُ وقتها لا أزال تائهاً كعادتي، وساوسُ تحوم في داخلي، هل ما يحدث واقعيٌّ أم إنه من وحي الخيال؟ أقلِّب الأمور في رأسي؛ علَّني أجدُ ضالَّتي، والهواجسُ تُحاصرُني من كل اتِّجاه، ما الَّذي يحدث الآن؟

قلتُ له: أريد معلوماتٍ أكثر.

- ما أول شيء لاحظتَه عند عودتك إلى البيت مباشرةً من تلك المزرعة؟

فسَّرَ لي إبراهيم الوضع قائلاً:

- رجعنا في وقت متأخر، وكانت الساعةُ تشير للثانية فجراً، أولُ ما قمتُ به هو سؤال أخي عن وضع أمي، كان الآخر بحالة مُزريةٍ لا يعرف مِن أين يبدأ، حزينٌ قلقٌ، والتوترُ كاد أن يفتكَ به.

رد أسامة قائلا

- منذ أن أغلقنا الهاتف بعد مكالمتك سقطَتْ على الأرض، وبدأ جسمُها كلُّه يرتجف، حتى رأيت الزَّبَدَ يخرج من أطرافِ فمها، حاولتُ أن أجعلَها تعود إلى حالتها الطبيعية، لكنَّ الأمر كان فوقَ كل ما تتصوَّر، قمتُ بتثبيت رأسِها خوفاً مِن أن يصطدم بالأرض، مرَّتْ دقائقُ كأنها الدهر، وبعد فترة وجيزةٍ هدأتْ، وكان العرقُ يتصبَّبُ من جسدها، وحالتُها مقلقةٌ جدَّاً.

قاطعتُه قائلاً:

- لماذا لم تأخذْها إلى لمستشفى مباشرة؟

ردَّ عليَّ محاولاً شرح ما حدث بعدها:

- انتظر قليلاً يا إبراهيم، لا تستبق الأحداثَ، كلُّ ما في الأمرِ أنَّني بعد أن وضعتُها على السرير، نهضَتْ وبدأتْ بالنظر باتجاه الحائطِ الَّذي أمامَ سريرِها، كأنها تنظر إلى شيءٍ ما، استمرَّت على هذا الحال لدقائقَ، ثمَّ نظرتْ إليَّ وكأنَّها عادتْ لحالتها الطبيعية، فقلتُ لها محاولاً الاطمئنان عليها:

- هل أنتِ بخير يا أمي!

أخذَتْ نفَسَاً عميقاً، وقالت لي:

- ما الَّذي حصل خلال الفترة الماضية؟ وهل حدث لأخيك أيُّ مكروهٍ؟

شرحتُ لها ما حدث بالضبط، وطلبْتُ منها أن تجهِّزَ نفسها لآخذها إلى المستشفى، وقبلَ أن أنتهيَ من كلمتي الأخيرة التفتَت إليَّ بصرامة وقالت:

- إيَّاك أن تفعلَ هذا الأمر؟ أنا لست بمريضة، وعلاجي لا يتوفَّر في المستشفيات.

لم أستوعبْ تلك الكلمات، لكن ما قرأتُه بعينَيها كان واضحاً؛ الذهاب إلى المستشفى ممنوعٌ.

شعرتُ أنها عادتْ كما كانت سابقاً، وقالتْ تلك الجملة الَّتي أصبحت لا تفارقُ لسانَها عندما تستفيق:

- كلُّ شيء بالعيون، السرُّ بها، العيونُ لا تعرف الكذبَ.

منذ ذلك الوقت وهي على هذه الحال، لم يبقَ شيخُ دينٍ لم نأتِ به إليها، والجميعُ وقف عاجزاً عن إيجاد أيِّ حلٍّ، الكلُّ كان يستغربُ من وضعها، وظنَّ البعض أنها مَلبوسةٌ، وبنفس الوقت لا يوجد بها إيَّةُ علامةٍ من علامات التلبُّس، الأمرُ كان بالنسبة لنا يفوق الخيالَ يا عدنان.

إلَّا شيخاً واحداً كان مختلفاً عن الباقين، بسبب طريقتِه وشكلِه الَّذي لم يكن يشابهُهم، يُدعى الشيخ نافع، الَّذي قال:

- إن والدتَكم عبثَتْ بشيء أكبرَ مما كانت تتصوَّر، وللأسف قد أضاعَت مفاتيحه الآن، وهو ما يقومُ بتلك الأشياء العدوانيَّة، ولن تجدوا الحلَّ إلا مع شخص واحد يُدعى "عدنان"، الوافد الجديد، الَّذي يمتلك الكثير، ولديه أعوان في كل مكان، إنسانٌ وشِبْهُ إنسانٍ يعيش بيننا، يفكُّ العُقَد، ويواجهُ كلَّ ما جَدَّ وطَرَأ، اذهب إليه ولا تتردَّدْ، إنَّه كبيرُنا الجديد.

كنتُ مذهولاً مما سمعتُ، وبنفس الوقت أشعر بتلك الهيبة الَّتي تجتاحُ روحي كلَّها، الأمر كان يفوقُ أيَّ شيء، إحساسٌ جميلٌ ومرهقٌ، مجبَرٌ بكلِّ ما أُوتيت

من قوةٍ أن أستمعَ ولا أعلَق.

المسكينُ كان يعتقد أنَّه سيجدُ لها حلَّاً سريعاً، وأنَّ الحلولَ مختبئةٌ في جيبي، ومتى ما أراد أخرجتُها له، ابتسمتُ كعادتي ابتسامةً ظاهريَّةً، لا تعكس ما بداخلي من صِراعات، وبعدها صمتُّ قليلاً، وجاءني ذلك الصوتُ الداخليُّ مِن قِبَلِ التابعِ المهاب، أحد الخدَّام الَّذي أخبرني عنهم الشيخُ زهران، والَّذين هم تحت إمرَتي، ويساعدونَني في كل الأمور، ليهمس قائلاً:

- دعْهُ يرحل الآن، ويأتيكَ بعد ثلاث ليالٍ، ويُبعدُ والدتَه عن أكلِ كلِّ ما به رُوح، وسنجدُ له الحلَّ الَّذي سيُرضيه، وتُحَلُّ عقدتُها.

عندما يأتيني ذلك الهمسُ أشعر بانعزالي عن هذا العالَم لثوانٍ، ولا أعلمُ ما الَّذي يحدثُ من حولي، يصبحُ كلُّ شيء ضبابيَّاً غيرَ مرئيٍّ، بينما خيالي يسبحُ في عالَمٍ آخر، مبتعداً عن عالمنا الحقيقيِّ الَّذي نعيشُ فيه الآن.

- ابتسمتُ بوجهي بعد أن رجعتُ لواقعي، وقلتُ له:

- بعد ثلاثِ ليالٍ ارجعْ إليَّ مرةً أخرى، وإيَّاك أن تأكلَ والدتُك أيَّ شيء تسكنُه الروحُ.

لم يفهم في البداية حديثي كله، بل صمتَ كالأبلَه، تذكَّرتُ نفسي وقتَها كنتُ أصمتُ كالأحمق بلا ردٍّ عندما يحدِّثُني الشيخ زهران.

كرَّرتُ جُملتي مرةً أخرى وقلتُ:

- ثلاث ليالٍ لا تُطعمْها أيَّ شيء تسكنُه الروح، ومِن ثمَّ نَفكُّ العقدةَ الَّتي رُبِطَتْ على رقبةِ أمِّك.

قال لي بعد أن صُدِمَ مِن كلامي:

- هذا يعني أنَّني سأنتظر ثلاث ليال أخرى! وأُجبِرُ والدتي أن لا تأكلَ أيَّ شيءٍ به نفس؟!

لوَّح برأسه بأسىً كأن الأمرَ لم يعجبْه قائلاً:

- قلقٌ جداً على وضعِها، أخافُ أن يحصلَ لها مكروهٌ أو أفقدَها، وذلك الشيءُ الَّذي تصوَّرَ لنا على هيئتِها لا يزال يعبثُ بها، كأنه يريد أن يتنهزَ أيَّ فرصةٍ لينقضَّ علينا...

عاد مهابٌ مرةً أخرى وقال لي:

- دَعْهُ يطمئنَّ، إنَّ الشيء الَّذي ظهرَ لهم في المزرعة، لا يستطيعُ أن يتعدَّى حدودَها؛ لأنَّه مربوطٌ بشيء داخلَها، ومأمورٌ أن يبقى فيها، إلَّا في حال انفكَّتْ

عقدة أخيرة، بعدها أنتَ ووالدتُك وعائلتُك جميعكُم ستكونون في خطر جسيمٍ لا مَهرَبَ منه.

قلتُ له ما طلبَه مني مهاب، وأنَّ الأمرَ سيكون مختلفاً خلال الأيام القادمة، وقال لي مهابٌ:

- ليقوموا برشِّ الملحِ حول منزلِهم كلَّ يومٍ قبل الغروب، ليُؤمِّنَ لهم حمايةً من تلك الأشياء الَّتي باتَتْ تهدِّدُهم، ولْيُرتِّلوا بعضَ الآيات القرآنية.

خرج من عندي المسكينُ شاردَ الذهن، يعيدُ حساباته بقلقٍ، وعيناه منطفئتان من الحزن، طمأنتُه قبل رحيله وقلتُ:

- الأمور لا تزال معنا، لا يوجدُ شيءٌ خارجَ سيطرتنا، فقط نفِّذْ ما طلبتُه منكَ، وسنجدُ الحلولَ المناسبة لكَ ولوالدتِك.

بعد أن خرج، هدَأَتْ روحي المضطربة، أخذتُ نفساً عميقاً، ألقيتُ برأسي للوراء، أغمضتُ عينيَّ، ثوانٍ قليلةٌ وأنا على هذا الحال:

- عليكَ أن تعتادَ مثلَ هذه الأوضاع؛ لأنَّها ستكرَّر معك كثيراً.

نهضتُ من جِلستي تلك لأجدَه بقوامِه الطويل وشعرِه الكثيف، وبياضِهِ المشعِّ، ورِدائِه ذي اللونِ الواحد، يقفُ أمامي، إنه مهاب...

هززتُ رأسي، كأني موقنٌ أن ما يقولُه صحيح، ولا بدَّ أن يعرفَ أنَّها المرةُ الأولى التي أتعامل فيها مع البشر بهذه الطريقة:

- أظهِرْ حزمَكَ ووقارَكَ، وركِّزْ على عيونِهم، برهنْ لهم على قدراتِك، أرسلْ لهم طَاقاتِك، وسيطرْ على أرواحِهم، أشعرْهم أنَّ الحلولَ كلَّها بيدك، الإجابات لن تصعب عليك، ولكلِّ عقدةٍ حلٌّ.

هذا ما قالَه مهاب.. وكأنه يدرِّبُني على فعل تلك الأشياء، قلتُ له:

- وهل فعلتُ عكس ذلك يا مُهاب؟

أجابني:

- شعرتُ لوهلةٍ أنَّ الأمورَ ستُفلِتُ من يدك، كنتُ خلفكَ ألقِّنُكَ، وأحاوِلُ قدرَ المستطاع أن أجعلَكَ متماسكاً، واثقاً مِن كلِّ ما تقوله، تدرَّب على هذا في المرَّات القادمة.

هنا توقَّفَ فجأةً، وبعدها قال:

- أعداؤُكَ مِن حولِك كثيرون، ويتمنَّونَ ما عندكَ، لا تقتربْ كثيراً.

ثمَّ اختفى مِن أمامي فجأةً.

ناديتُه مرةً ومرَّتَين، ولم أجدْ أيَّ إجابة.

شعرتُ بذلك الهمسِ في أُذُني:

- قريباً سآتي إليك ومعي حلٌّ لحسنة، هذا كلُّ ما في الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

جلس أمامي يحدِّقُ بي بطريقة غريبة، كأنني للتوِّ قد قتلتُ أحدَ أحبَّائه، لم تكن طريقتُه مألوفةً، كنتُ أردِّدُ في نفسي: ما بال هذا الشخصِ ينظرُ إليَّ بكل هذا الاهتمامِ والتجهُّم؟

- ما لكَ تنظرُ إليَّ بهذه الطريقة يا شملان؟

قلتُها مستفسراً.

ردَّ علي بذلك الوجهِ العابس:

- زاركَ أحدُ الأشخاص الليلةَ يطلب المساعدة يا عدنان؟!

أجبتُه:

- بالفعل لقد زارني رجلٌ يطلبُ مني المساعدةَ اليوم، ما المشكلة بذلك؟

قال لي:

- لماذا لم تخبرْني بكلِّ ما حصل معك؟

أجبتُه قائلاً بعد لحظاتِ صمتٍ قليلة:

- ولماذا أخبرُك؟ لديَّ أعوانٌ يساعدونَني بكلِّ ذلك.

كانت جُملتي لها وقعُها عليه، فقال:

- لو كان أبي يعيشُ ورَآكَ تقومُ بهذا الفعل لكان له تصرُّفٌ آخرُ معك، لا أعلمُ لماذا أمثالُك يصلون إلى هذه المراتب، رغم أنَّك لا تعرفُ ولن تتعلَّمَ أيَّ شيء من هذا العالَم الغريبِ الَّذي يفوقُ إدراكَكَ.

قلتُ له:

- إلى ماذا ترمي يا خالي شملان؟! كلماتُك فيها العديد من البواطن غير المفهومة.

ابتسمَ سريعاً وهو يحاول تداركَ الموضوع وقال:

- لا... لا شيء، كل ما في الأمر أنَّني أحاولُ مساعدتَكَ حتى لا تقعَ في الخطأ، كونك رجلاً مبتدأً في مثل هذه الأمور.

كنتُ أنظرُ إليه وفي بالي الكثير من التساؤلات، ثم أردفَ حديثَه قائلاً:

- لقد أحضرتُ لكَ هذا الخاتم، كي يُساعدَكَ على ترويض أعوانِك، ويحميكَ من المتربِّصين، يبدو أنكَ لا تعلم أن أعداءنا كثيرون، ويتحيَّنون أيَّ فرصةٍ ليظفروا بنا.

قلتُ له:

- ماذا تقصد؟

أجابني:

- خدَّامكَ سيكونون تحت إمرتِكَ بشكل أكبر لو لبستَ هذا الخاتم، ولن يتمرَّدوا عليك، كلُّ ما عليك الآن هو ارتداؤه لتكونَ الأمورُ كلُّها تحت سيطرتِكَ.

أخذتُ الخاتمَ الَّذي كان ذا فصٍّ بنيٍّ، وفي داخله الكثير من التموُّجات السوداء، ورحتُ أدقِّقُ به، ومِن دون شعورٍ ارتديتُه، وبعد أن وضعتُه في أصبعي شعرتُ برجفةٍ انسلَّت بكل خلية في جسدي.

لم أجد نفسي إلَّا وأنا أسقط على الأرض، كأن زلزالاً قد حدث، والصداع الشديدُ يفتكُ برأسي، شعرتُ أنَّني لا أقدرُ على المقاومة.

أفقتُ على صوت الشيخِ زهران الَّذي خرج من العدمِ مثل كلِّ مرةٍ:

- لا تعبثْ بأشياءَ مبهمةٍ، العبثُ يجلبُ النحسَ والتصفيدَ.

كنتُ أنظر إليه وهو يقفُ أمامي بكاملِ هيبته.

- ما الَّذي تقصدُه؟ ماذا حدث بالضبط؟ وما الشيء الَّذي عبثتُ به؟

قال لي مشيراً إلى لخاتم الَّذي بيدي:

- ارمِ ذلك الشيءَ، وخلِّصْ نفسكَ ومَن معكَ ممَّا وقعتَ به، أعداؤُكَ هم دائماً مَن يبتسمون في وجهك، ثمَّ اختفى.

خلعتُ الخاتمَ، ورميتُه على أحد المقاعد الموجودة في الغرفة وأنا أضعُ يدي على رأسي من شدَّة الألم، ولم أفهمْ كلمةً واحدةً مما قالَه الشيخ زهران، لكنِّي على علمٍ أنَّ هناك شيئاً قد حدث، لا بدَّ من البحثِ عنه لأصل إلى الحقيقة، إنها طُرقُ تدريبهم المتعبة، والتي تحتاجُ منِّي لحُسنِ البديهةِ وفَهم ما بين السطور.

كانت الأوضاعُ هادئةً خلال اليومَين الفائتَين، إلَّا من ألم رأسي الَّذي لم يكن يتركُني قطُّ، كأنه قطعةُ عِلكٍ مزعجةٍ التصقَتْ بشعري، لم يكن هناكَ أيُّ تواصلٍ مع أيٍّ من الخدام، شعرتُ للحظة أنني أغوصُ داخل متاهةٍ لا نهايةَ لها، حتى خالي شملان لم يكن يمكثُ كثيراً في المنزل.

رأيتُه مرَّةً واحدةً، وكان ينظر إليَّ باستهزاء وكِبْرٍ، على غيرِ عادته، ولم يتحدَّث معي نهائيّاً، الأدهى من هذا كلِّه أنَّني كنتُ قلقاً، وأفكِّر كثيراً بموضوع إبراهيم، وما هي الحلولُ الَّتي سيجلبُها لي مهابٌ لأخلِّصَه ووالدَتَه من تلك المشكلة الَّتي علقتْ بهم من دون سابقِ إنذار.

رفعتُ هاتفي وضغطتُ على أحد الأرقام:

- اشتقتُ لكِ كثيراً يا أمي.

هذا أول ما نطقتُه وشعرتُ براحة نفسيَّةٍ عندما سمعتُ صوتَها.

أجابتني بحسِّها الدافئ:

- وأنا أكثر أيُّها الأحمق، كيفَ تسير الأمور معك؟ هل استطعتَ أن تتأقلَم مع وضعكَ الجديد؟

قلتُ لها:

- الأمور بالنسبة لي مبعثرة، أشعر بصداعٍ منذ يومَين، يكاد لا ينفكُّ من رأسي، وغيرُ ذلك الهامسون لم يتواصلوا معي منذ فترة..

صمتَتْ والدتي قليلاً وبعدها قالت:

- المقرَّبون يا عدنان... لا تأمن كلامَهم، فبعضُهم كالحيَّات، يُريك وجهاً مبتسماً، ويُخفي خلفَه الكثيرَ من الحقد والحسد.

قلتُ لها مستفسراً:

- ماذا تقصدين يا أمي؟ لماذا تتكلَّمين بالألغاز كالهامسِين، هل هناك شيءٌ يحدثُ من خلفي؟

أجابته بأسىً قائلةً:

- غيرُ مسموح لي أن أقولَ غير ذلك يا ولدي، ولو تجرَّأتُ مِن الممكن أنْ أوذِيَكَ، هذه قواعدُهم المعقدة، ابحثْ حولَك تجدِ الإجابات.

كان الحديثُ معها غيرَ واضح، لكني كنتُ أبحثُ عن شخص يشدُّ من عزيمتي المضطربة، ويُزيلُ عني التعبَ الَّذي يُثقلُ كاهلي ما بين الحين والآخر.

قلتُ لها ما حدث معي، بعد أن زارَني إبراهيمُ الَّذي يطلبُ علاجاً سريعاً لحماية والدتِه وعائلتِه من خطر غير مرئيٍّ يُداهمُه، وموعدي معه يومُ غدٍ، إلى هذه اللحظة لم يتواصل معي مهاب، ولا أعرفُ ما هي طرقُ التواصل معهم، والشيخُ زهران غائبٌ أيضاً، فقالت لي:

- ليس أمامَك سوى المواجهة، المواجهةُ هي الطريقةُ السحريةُ لحلِّ أيِّ عُقدة، واقعُكَ أمامَكَ، واجههُ ولا تُدِرْ ظهرَك، أنتَ تملكُ كل المقوِّمات لذلك.

قلتُ لها متردِّداً:

- أنت تعرفينَني، إنني إنسانٌ متردِّدٌ كثيراً، وأكره المواجهاتِ

أخذَتْ تنهيدةً طويلةً سمعتُها عبرَ الهاتف وقالت:

- منذ صِغرِكَ كنتَ ترفضُ الخروج، ترفضُ أن تندمجَ مع مجتمعِك والذين مِن حولك، غرفتُك هي مأواكَ الَّذي تلجأ إليه، محاولاتٌ كلُّها باءت بالفشل معك، وأعتقدُ لولا اختراعُ جهازِ الكمبيوتر ودخولك هذا العالَم الَّذي على أثَرِه اخترتَ اختصاصَكَ وأصبحتَ مهندساً لتكنولجيا المعلومات، لكان من الممكنِ أنْ تُصبحَ من هؤلاء الَّذين أصابتْ عقولَهم لوثةٌ عقلية.

كلامُها كان قاسياً بعضَ الشيء، لكنِّي تقبلتُه ولم يكن أمامي أيُّ إجابة.

أكملَتْ حديثَها:

- أبوكَ لم يقم بواجباتِه معك، وتركَ كل شيء لي.

قاطعتُها هنا وقلتُ:

- إلى الآن لم أفهم سببَ انفصالِك عن والدي؟

قالت لي:

- ستعرف الآن... والدُكَ مثلك مجنون اتِّكاليٌّ، لا يريدُ هو الآخر أن ينخرطَ مع العالَم، كنتُ أجدُ صعوبةً كبيرةً في التعامل معه، في أغلب أوقاتِه بعد ما يعود من عمله كان يحبسُ نفسَه، غير آبهٍ بأحد ولا بك، لا أُنكر إنني كنت أدخلُ معه في كثير من المشاجرات، لكنَّه كان لا يردُّ، ويحاول قدرَ المستطاع أن يُنهي ذلك النقاشَ الَّذي يعتبرُه عقيماً، وينسحبُ بهدوء، حتى لو كان منهزماً، حياتي مع والدِكَ استمرَّت لمدة عامَين، وطوال هذه الفترةِ كنتُ أفكر بالانفصال، حتى جاء ذلك اليوم الَّذي صعقَني بجملته تلك:

- جليلةُ نحن لا نصلح لبعضنا البعض.

كنتُ وقتَها في حالة من الذهول، قلتُ له بعد أن ابتلعتُ الصدمة:

- هل ترى ذلك يا خالد؟!

أجابني ببرودِه المعتاد:

- هذا أفضلُ قرارٍ سأتَّخذُه في حياتي، ولا تخافي لن أطالبَكِ بحضانة عدنان، سأتركُه لكِ.

قلتُ له:

- ما الَّذي جعلكَ تتخذُ هذا القرارَ المفاجِئ؟

قال وهو يحاول اختصارَ كلامه:

- هناك أسباب عدَّة، ومن بينها سببٌ لا أستطيع البوحَ به، انفصالُنا أفضلُ لي ولكِ ولولدِنا عدنان، سأخرجُ من حياتكِ إلى الأبد، لا أشعرُ بأيَّة راحةٍ وأنت تعيشين معي.

سكتُّ والدهشةُ هي من يعتلي وجهي، ليتركني ويرحل، ومنذ ذلك اليومِ لم أرَ وجهَهُ، كنتُ مقتنعةً بفكرة الانفصال قبل أن يصدمَني بذلك الخبر.

قلتُ لها مستفسراً:

- ما أسبابُ وفاة أبي المفاجِئة؟

قاطعَتْني بصرامة وقالت:

- يكفي ثرثرةً يا ولد.

ثم بعد ذلك أغلقَتِ الهاتفَ، رغم أنَّني لم أصلْ لأيِّ نتيجة، فهي نفسها غامضةٌ لا تتعاملُ معي بوضوح، فأنا طوالَ السنوات الماضية كنتُ مباشراً، أصدِّقُ الَّذي تراه عيناي، ولا أعرفُ طريق الأحجيات هذا الَّذي يُجبرُني أن أتعمَّق في تلك الأشياء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

كان يجلس بهدوء وعيناه متعبتان، ينظر إلى الأرض بشُرودٍ وقلقٍ، كنتُ أُراقبُه بعد أن قدَّمتُ له فنجانَ القهوة، بينما ذهني هو الآخرُ لم يكن حاضراً، أترقَّبُ أيَّ حالةٍ همسٍ من الممكن أن أشعرَ بها، وتأتي معها الحلولُ، من أجل فكِّ العقدةِ الَّتي عَلِقَتْ بها عائلتُه.

- لقد نفَّذتُ كلَّ ما طلبتَه مني، وهذه الأيامُ الثلاثة قد انقضت، لم تأكلْ أمِّي أيَّ شيء به رُوحٌ كما أمرتَ.

هذا ما قاله إبراهيمُ بعد أن ارتشفَ قليلاً من قهوتِه، بالفعل كنتُ وقتَها لا أملكُ أيَّ إجابة أقولُها له، كنت متعباً مثلَه، أبحثُ عن الحلول، لكني تظاهرتُ بالثقة الكبيرة، وكان كلُّ تركيزي ينصبُّ على عينَيه لأُشعِرَه أنَّه قد وصلَ إلى لمكان الَّذي سيحلُّ جميعَ مشاكلِه، ثم باغتُّهُ بسؤالٍ بهدفِ كسبِ بعضٍ من الوقتِ وقلت:

- هل حالُ والدتِكَ تغيَّرَ في الأيام الثلاثة الماضية؟

أجابني وقال:

- لم يتغيَّر الوضع كما قلتُ لك، والدتي بحالة صعبةٍ جدَّاً، ومن الممكن أن نفقدَها بأيَّة لحظة ما لم نتداركِ الوضع، المشكلةُ أنها تقول: "لو أخذتموني إلى المستشفى ستتعقدُ الأمورُ كثيراً".

تنفَّستُ بعمقٍ متظاهراً مرةً أخرى أنَّني أتواصلُ روحيَّاً مع شيء، والحقيقةُ هي أنني لا أتواصلُ مع أيِّ أحد سوى نفسي، ثم قلت:

- سأزورُكم الليلةَ، كلُّ ما أريده الكتمانُ، وعدمُ إبلاغِ أيِّ أحد سوى الأشخاصِ المعنيِّين.

هزَّ رأسَه بالقبول وقال:

- هل ستنتهي هذه القصةُ اليومَ، ويعودُ كلُّ شيء إلى مكانه؟

قلتُ له بعد أن التفتُّ إليه بعينَين غاضبتَين:

- هل تعتقد أن الأمرَ سيُحلُّ بسهولة؟! الطريق لا يزال في بدايته، والقصة الَّتي تتحدَّثُ عنها ستبدأ الليلةَ، والدتُكَ عبثتْ مع العالَم الآخر، ونحتاجُ إلى بحث وتدقيقٍ؛ لأنَّنا نتعاملُ مع مخلوقاتٍ لا تملكُ من الضمير شيئاً، وسَعةُ الصدر مطلوبةٌ في مثل هذه الأوضاع.

انتبَه إبراهيم لغِلظةِ حديثي معه فقال:

- أعتذرُ يا شيخ عدنان عمَّا بدر من منِّي، فأنتَ تعلم أنَّني جاهلٌ بمثل هذه الأمور، وسأقومُ بكل ما تطلبُه منِّي.

ونهض بعدها وَهَمَّ بالخروجِ فقلتُ له:

- في الساعةِ الثامنة الليلة سأكون عندكم، أريدُ منك السِّرِّيَّةَ التَّامَّة.

تقدَّم خطوتَين نحو الباب ثمَّ استدارَ إليَّ وكأنَّه تذكَّرَ شيئاً وقال:

- يا شيخ ما هو المطلوب منِّي؟

قلتُ له بعد أن عقدت حاجبَيَّ:

- ماذا تقصد بالمطلوب منك؟

أجابَني بتردُّد كبير:

- الذي أقصدُه يا شيخ أتعابك على هذه الجلسات.

تمالكتُ أعصابي كثيراً، وحاولتُ قدرَ المستطاع عدمَ الردِّ عليه بطريقة غير لائقة، وقلتُ:

- هل تعتقدُ أنَّني مشعوذٌ أو دجَّالٌ أتقاضى أتعاباً على حلِّ مشاكل الناس؟! أنا شخص روحانيٌّ أعطاني الله الكراماتِ لأساعدَ الناسَ، وليس للكسب الماديِّ، اذهب من حيث أتيتَ، كلُّ ما أريدُه منكَ الدعاءُ لي كي أستطيعَ أن أنقذَ والدتكَ من هذا كلِّه.

شعر وقتَها بالخجل الَّذي ارتسمَ على معالِمِ وجهِه وخرجَ بهدوء.

لا أعلم لماذا كنتُ أتعاملُ معه بهذه الطريقة، فأنا لستُ من ذلك النوع الَّذي يُحرِجُ الناسَ ويجعلُهم يرتبكون، طوال عمري كنتُ مسالِماً، والَّذين كانوا يقومون بإيذائي في أغلبِ الوقتِ أتصرَّف معهم بالانسحاب لا بالمواجهة، وأظنُّ أن غيابَ مُهابٍ المتعمَّد هو ما زاد حالتي العصبيَّةَ سوءاً.

هنا فطنْتُ أنني سأزورُه مساءَ اليوم، وأنا لا أملكُ أيَّ مهارةٍ في التعامل مع مثل هذه الأمور، هل وضعتُ نفسي بمأزق جديد؟ المثيرُ للغضبِ أنَّني لا أملكُ أيَّاً من الحلول الَّتي وعدني بها مهاب، وغير ذلك أن الشيخَ زهران هو الآخر غائب.

أيام الهدوء الَّتي كنتُ أعيشُها قد انتهت، وأعيشُ حاليَّاً بأيام تفوقُ كلَّ قُدراتي، ووالدتي مثلهم تتلفَّظُ بتلك الألغاز الَّتي لا أعرفُ كيف أتعامل معها.

وما أثار شعوري بالرهبة هو سماعي لأول مرة إبراهيم يقول لي: "يا شيخ".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

9

كانت الأجواء السائدةُ هي الترقُّبُ، لم يكن أيُّ شيء في هذا الوقت يدعو للتفاؤل، السيدةُ الَّتي تُدعى حسنة ممدَّدةٌ على السرير مغمضةُ العينَين بحالة إغماءٍ كاملة، بينما جلس كلٌّ من أسامة بضخامةِ جثَّتِه، وطولِه الفارع، وشاربِه الثَّخين الَّذي استقرَّ في وسط وجهه الأبيض ذي العينَين البارزَتَين، كان ينظر إليَّ باهتمام شديد، فيما جلسَ بجانبِه شقيقُه إبراهيمُ الَّذي ظهر عليه الوَهَنُ والتوتر، وكانت بزاويةِ الغرفة امرأةٌ نحيلةُ الجسد ترتدي على رأسِها العباءَة، ومعالِمُ الخوف هي الشيءُ الذي ينطق على وجهِها.

لم أكنْ أملكُ أيَّ شيء عندما وصلتُ إلى هنا، فقط أتيتُ إليهم بجسدي، وبعض الخبراتِ البسيطةِ الَّتي اكتسبتُها من مغامرتي مع جميلةَ، أمَّا غيرُ ذلك فلا يوجدُ أيُّ شيء سِوى أنَّني سأعملُ بها، لعلَّ وعسى أن تأتي بنتيجة مَرْضيَّة، كنتُ أتمنَّى أن يهمسَ مهابٌ بأذني، أو يُداهمني الشيخُ زهران بدخوله غير المتوقع، لكن لا شيءَ من هذا حدثَ، كلُّ ما في الأمر أنني وحدي أواجهُ مَصيري مِن غير تدخُّل، وبنفس الوقت لا أعرفُ أسبابَ هذا الغياب، أتذكَّرُ كلمات والدتي: "المواجهةُ هي الحلُّ لكلِّ مشكلة"، وأنفِّذُها بقلق داخليٍّ، بينما انفعالاتي الخارجيَّةُ كانت غيرَ ذلك؛ إذ تظاهرتُ بالثقة، وبعينَين يملؤُها الحزمُ والإصرار، وأوَّلُ ما نطقتُ به تلك الكلمات:

- أريد شخصاً واحداً معي في الغرفة.

نظر أسامةُ لأخيه إبراهيم، وكلٌّ منهما لا يريدُ البقاء، استمرَّ الوضعُ قليلاً وهُمْ يتخاطبون بالعيون، كررتُ جُملتي مرَّةً أخرى، لكن هذه المرَّة بصرامة.

قفزَ إبراهيمُ من مكانِه وقال:

- ابقَ أنتَ يا أسامة! عقلي لا يتحمَّل الكثير، يكفي ما حصل لي في المزرعة.

وما إن انتهى شقيقُه من جملتِه حتى رأيتُ علاماتِ الذعرِ قفزتْ إلى وجهِ أسامةَ الَّذي لم يتوقَّع أن يبقى وحدَه بمثل هذه الحالة.

خرج الجميعُ من الغرفة، وبقيتُ أنا وذو الشارب الثَّخين، أنظرُ بكلِّ تمعُّن بوجه تلك العجوز الممدَّدةِ على الفراش، وفي خيالي الكثيرِ من السيناريوهات الَّتي أريدُ تنفيذَها، ولا بدَّ لي مِن أن أختارَ شيئاً يكون ملائماً لتلك الحالة.

اقتربتُ منها ببطء شديدٍ، ثمَّ وقفتُ بمحاذاة رأسِها، وبدأتُ أُتمتِمُ بعضاً من الآياتِ القرآنيَّة الَّتي حفظتُها من الشيخ عزَّام وزهران، كرَّرتُ الآياتِ بانتظام ووضعٍ هادئ، لأبيِّنَ لأسامة أنَّني شخصٌ متمرِّس، هنا شعرتُ بذلك الصُّداعِ المَقيت الَّذي صاحبَني منذ أن ارتديتُ الخاتمَ الَّذي أعطاني إيَّاه خالي شملان،

كان الألمُ يتصاعدُ، وشعرتُ أنه وصلَ لوسط هامتي، وجسمي من الداخل كلّه ينتفض، وطبعاً كنتُ مستمرَّاً بترتيلِ بعضِ الكلمات تصاحبُها الآيات، وأنا مغمِضٌ عينيَّ، هنا شعرتُ بشيء أراه جيِّداً، كان أمراً غريباً للمرة الأولى يحصل لي، صورةٌ غيرُ واضحةِ المعالِمِ ضبابية، تحتاجُ إلى تقريب أكثرَ لتتَّضحَ الرؤيةُ، كان هناك من يهمسُ لي ويقولَ: "لا تفتح عينَيكَ".

لم أكنْ أميِّزُ الصوتَ جيِّداً، ولم تكن معالِمُ المشهدِ ظاهرةً تماماً، كلُّ شيء كان باهتاً مربِكاً، كنتُ وقتَها أتنفَّسُ سريعاً، وكان أسامةُ ينظر إليَّ، وكلُّ جسده ينتفضُ من الخوف.

اتَّضحَ لي صوتٌ أسمعُه للمرة الأولى، وهو يردِّد:

- استمرَّ.. استمرَّ على ما أنتَ عليه، الصورةُ ستتَّضح، لن أتركَكَ إلى أن تنتهيَ.

كنت أركِّزُ كلَّ قوتي على ذلك المنظرِ الَّذي كان يقتربُ ببطء شديد، التعبُ والارتعاشُ كانا يُثقلان جسدي، لا أدري ما الَّذي يحصل، الأمرُ يزدادُ غرابةً كلَّما اقترَبْتُ، الصورةُ بدأت تتَّضحُ ملامُحها، ما الَّذي يحدثُ أمامي؟! إنَّ ما تبصرُه عينايَ غريبٌ جداً، ولم أعتده، نعم.. أرى مهاباً، هذا المهابُ الَّذي أرمقُه بكاملِ هيبتِه، يتجلَّى أمامي بصورةٍ مختلفةٍ تماماً.

وجهُهُ واهنٌ، وعيناه مغمضتان، رأسُه متدلٍّ على صدره، كأنَّه فاقدٌ للوعي، ما الَّذي ألمحُه، لحظة! هناك شيءٌ آخرُ، مهابٌ مقيَّدٌ بالكامل، ما الَّذي جرى؟! كيف أرى هذا الشيء؟! لم أكن أتوقَّع للحظةٍ أن هذهِ المخلوقاتِ ستكونُ مكسورةً مثل البشر، هيئةٌ منهزمةٌ ومحطَّمةٌ بلا ملامح ظاهرة، ردَّدْتُ اسمَه، لم يُجبْ على أيٍّ من كلماتي، كان مغمىً عليه، لا يدري ما الَّذي يجري له، السؤالُ هنا: ما الَّذي جعلَ مهاباً بهذه الوضعيَّة الغريبة؟ لماذا هو مكبَّلٌ وغائبٌ عن وعيه؟ لماذا جسدُه واهنٌ إلى هذا الحدِّ؟ من الَّذي أسرَه؟

الأمر يزدادُ غرابةً، في هذا الوقت عادَ الصوتُ الَّذي كنتُ أسمعُه قبل قليل، ولا أعرفُ مِن أين يأتي ومَن هو؟

- الهامسون يحتاجون مساعدتَكَ، كلُّ ما عليكَ هو أن تقوِّي روحَكَ مِن الداخل؛ لتستَطيعَ فكَّ أغلالهم.

قلتُ له مستفسراً:

- مَن أنتَ؟ ولماذا تتعاملُ معي بهذه الصورة؟

أجابني بثقة تامَّة:

- أنا نفسُك الرُّوحانيَّةُ، نفسُك الّتي تتجلّى في العالَم الآخر، فتحتَ لها الأبوابَ والآن هي تستجيبُ، لديك مهمَّتان؛ الأولى مع تلك العجوز الَّتي ينتفضُ جسدُها الآن؛ فقد حرَّكتْ ما كان بها، أمَّا الأمرُ الآخرُ فهو فكُّ أغلالِ الهامسِ الَّذي أصبحَ مأسوراً.

عمَّ الصمتُ واختفى كلُّ شيء أمامي، لم أعد أسمعُ أيَّ صوتٍ أو أرى أيَّة صورة، كل شيءٍ باتَ مظلماً، شعرتُ للحظة أنَّني قد رجعتُ مرَّةً أخرى إلى عالَمي، بعد ما سمعتُ صوتَ أسامةَ وهو يقول:

- أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، اللَّهمَّ أعوذُ بكَ مِن الخبثِ الخبائث.

لم أفهمْ لِمَ كان هذا المعتوهُ الَّذي بجانبي يردِّدُ هذه الجملةَ الَّتي لا تصلحُ لهذا المكانِ وهذه المهمَّة، وقلتُ بصوتٍ حازم أمنعُه من ترديدِ تلك الجُمل:

- اصمتْ إنَّك تشتِّتُنا، وتزيدُ قوَّةَ مَن يريدونَ الأذى لك.

فتحتُ عينيَّ لأجد جسدَ العجوز بالكامل ينتفضُ أمامي، لا أنكرُ أنَّ المشهدَ كان مرعباً، وغيرَ منطقيٍّ، فيما كان أسامةُ بجانب البابِ يملؤُه الخوف، كأنه يحاولُ الخروجَ، لكنَّ رجولَتَه تمنعُه.

هبَّتْ هنا العجوزُ ناهضةً من فِراشها بشكل مستقيم، وهي تنظرُ إلينا بكلِّ حقدٍ وشراسة، كانت تريدُ أن تنقضَّ على أحد منَّا، ولا تعطينا أيَّ فرصة، وبالفعل كانت تنظرُ لأسامة بطريقةٍ مغايرةٍ هو نفسه غيرُ معتادٍ عليها، ثم قال:

- ما بالُ أمِّي أصبحتْ بهذه الشكل، لماذا تنظرُ إليَّ هكذا؟

قلتُ له منبِّهاً:

- تماسك إنهم يستمتعونَ بخوفِنا، لا تحاول أن تُظهرَهُ لهم.

وما إن سمعَتْ صوتي حتَّى التفتَت إليَّ العجوزُ بنفس الطريقة، وبِغِلٍّ بان على وجهِها، كانت هنا أنفاسُها تتصاعدُ كأنَّها بالونٌ مطَّاطيٌّ ينتفخُ وبأيِّ لحظةٍ سينفجر، تذكَّرتُ في هذا الوقتِ كلماتِ الشيخ زهران عندما كنتُ مع جميلةَ: "إنَّ قوَّتَكَ بعينَيكَ، إنهم يهابونَها".

ركَّزتُ كلَّ نظري بعينَيها، وشعرتُ أنَّ هناك شعاعاً يخرجُ منها، لم تستطعِ العجوزُ مقاومتي، بل وضعَتْ يدَيها على عينَيها كأنها تتحاشى النظرَ إليَّ، وهي تهزُّ رأسَها.

خرج صوتٌ رجوليٌّ صارخاً بخشونة، تلفَّتْنا حولَنا في المكان نريدُ معرفةَ مصدرِ هذا الصوت، الَّذي ظهرَ مِن العدم في الغرفة بشكل مفاجئ، لكنَّنا لم نرَ شيئاً، عاد الصوتُ مجدَّداً وهو يقول:

- هذه المرَّةَ سننتصرُ عليها وعلى أولادِها، هي من جلبَتِ اللعنةَ، ولم تعرفْ كيف تتعاملْ معها، هي مَن تستحقُّ كلَّ هذه العقوبة، حسنة لن نتركَكِ إلَّا وقد نشرْنا بأولادِكِ وسلالتِكِ العِلَلَ والفَشَلَ والسقوطَ والدمارَ.

انتبهتُ هنا لكلمات أسامةَ الَّذي يردِّدُ تلك الجملة:

- يا شيخ عدنان، الصوتُ يخرجُ مِن أمِّي، كيف يحدثُ هذا الأمر؟ كيف تغيَّرَتْ نبرةُ والدتي ووصلَتْ لهذه الحال المريبة؟

ما أن انتهى من جملتِه حتَّى سقط على الأرض مغشيَّاً عليه من شدَّة الهول، لم يتحمَّلْ ما يراه.

بالفعل كان الصوتُ يخرج من العجوز حسنة، كان هناك شيءٌ غريبٌ يتحكَّم بها، لا أُخفي عليكم كنتُ شديدَ الرهبةِ والتوتر، أمامَه تظاهرتُ بالقوة، بينما في الحقيقة كنتُ خائفاً، إنَّ الَّذي بداخلِها إذا شعرَ بذلك الضَّعفِ فمِنَ الممكنِ أنْ ينقضَّ عليَّ ويدمرَني تدميراً ساحقاً.

بعد أن أتمَّ جملتَه قلتُ:

- ما الَّذي تريدُه؟ ما الَّذي فعَلَتْهُ هذه العجوزُ لتعاقبَها بهذه الطريقة؟ وتريدُ أن تتسلَّطَ عليها وعلى عائلتِها!

قال بذلك الصوت البشع:

- لم يُعتِقونا، وتسلَّطوا علينا، هي وأعوانُها، كانوا يملكون كل شيء، يعرفون نقاط ضعفنا الَّتي استطاعوا مِن خلالها التحكُّم بكل التفاصيل، إلا أن مَن كان مسيطراً، الآن قد احترق، وهذه العجوز قد فقدَتِ المفاتيح، ولا تعرف كيف تُعيدُ الأمورَ إلى نِصابها.

قلتُ له:

- ما المطلوب منها كي تَسلَم مِن شُروركم؟

أجابني:

- المطلوب لن أقولَه الآن حتى أنفِّذ كل ما أريد، فهُمْ لم يرحمونا بالسابق، وحان وقت الانتقام، دمَّروا مملكتنا، عندما اجتاحُوها بتلك اللَّعنات، الَّتي من خلالِها استخدموا كل المفاتيح، وسيطروا على الجميع، وأسروا ما أسروا منَّا، ولم يرحمونا أبداً، كانوا أشدَّاء، وبعدها قاموا بتوزيع أهل مملكتِنا على أعوانهم، ولم يتبقَّ منَّا أيُّ أحد، كنا محبوسين بتلك الطلاسم الَّتي كانت لا ترحمنا، ننفِّذ ما يقولون بكلِّ إذعانٍ من دون مناقشة، ولو كان هذا الطلب ضدَّ ما نُؤمِن به أو نعتقدُه.

عندما تأتيك الحلول لن يقفَ أمامَها أحد، ومن دون سابق إنذار، كل هذه الأغلالِ الَّتي كانت تكبِّلُنا قد انفكَّت، وتلك الطلاسم والرموز الَّتي تجعلُنا ضعافاً مسيَّرين، قد ذهبت بلا رجعة، وقد أصبحنا نملكُ كلَّ المفاتيح الَّتي كانوا يستخدمونها ضدَّنا، كانت فرحةً كبيرة، أنت تعلم أن من يفقدُ القدرةَ على السيطرة علينا بعدما كانت الأمورُ كلُّها بيده ينقلب عليه كلُّ شيء، أو كما تقولون: "ينقلب السحر على الساحر"، فبدأنا بالانتقام على طريقتنا.

وهذا أنا الآن أنتقم على الطريقة الَّتي أريد، جزاءً لها ولمن عاونَها، ولن نفرِّط بهذه الفرصة، نحن لسنا مثلَكم لا نتعلَّمُ من أخطائنا السابقة، بل نستغلُّها خيرَ استغلال، ولن نتردَّد لحظةً واحدة بإلحاق الأذى بها، الانتقام له لذَّةٌ مختلفة، لن تعرفَ قيمتَه إلا بعد أن تشعرَ به.

قاطعتُه وقلتُ:

- من الَّذي استطاعَ أن يفكَّ أغلالَكم، وأرجعَكم لصورتكم الأُولى؟

صمت لبرهة ثمَّ قال:

- النار الَّتي تعيش بنا هي من أنقذتْنا ممَّا نحن فيه، قد أعادت كلَّ شيء لمكانه الصحيح، وقتلتْ تلك الساحرة الَّتي كانت تملكُ زمامَ الأمور ولا ترحم، إن شرَّها قد استعرَ حتى أحرقَها هي ومن يُعاونُها أو يتعاونُ معها، وهذه هي النتيجة الَّتي تراها.

قلتُ له مستفسراً:

- إلى هذه اللحظة لم تُجب عن أسئلتي بوضوح، من الَّذي خلَّصكُم من هذا كلِّه؟

أجابني بغضب شديد:

- لن أجيبَ على سؤالك هذا، أعرفُكم أيُّها البشر، تحبُّون السيطرة على كل شيء، وأنت واحد منهم، تريد أن تفرضَ هيمنتَك الكلِّيَّة علينا، لن أتركَها أبداً، سأدمِّرُها تدميراً.

قلتُ له:

- لا أريد أن أوذيَكَ أو أسيطرَ عليك، كل ما في الأمر أريد تخليصَها من هذا، وأعدُك أنني سأتركُكَ أنت ومَن معك تعودون لقبليتِكم، فقط كلُّ ما أريده أن تتعاونوا معي ولنفكَّ تلك العقدة الَّتي ربطتْ برقبتَها.

قال بعد أن تغيَّرت نبرة صوتِه:

- فات الأوان يا عدنان، الأقدارُ المكتوبة لن تتوقّف إلّا بتمامِها، شعارنا القرنُ والمِنقار، والآن هم يدفعون ثمنَ ما عبثوا به ولا يعرفون قيمتَه، ابتعدْ أنتَ عن هذا كلِّه ليس لك أيُّ ذنبٍ كي تتأذَّى معهم.

هنا فاحت رائحةٌ قويةٌ لم أعرفْ ما هي بالضبط، كانت محبَّبةً إليَّ، وعلى ما أعتقد أنَّ هذه الرائحةَ قد انعكستْ على جسد تلك المرأة، الَّتي بدأت تتلوَّى أمامي كأنَّها ثعبان مجروح، كنتُ وقتَها أُنادي ذلك الشيء الَّذي كان يتحدَّث، لكن لم أسمعْ منه أيَّ ردٍّ، ولا زالتْ حسنة ترتعش وتنتفض في مكانها، ليهدأ كلُّ شيء، ورجعت تلك العجوزُ لوضعها الَّذي رأيتها عليه أولَ مرة، غائبةً عن المشهد العام.

فتُحَ البابُ لأرى إبراهيم يمدُّ رأسَه بهدوء، وتفاجأ بجسد أخيه أسامة ممدَّداً على الأرض، لتقفزَ عيناه من الصدمة ويقول:

- ما الَّذي حدثَ؟ ماذا حصل لأسامة؟

كنتُ وقتَها متعباً كثيراً مِن الَّذي فعلتُه، والأسئلة تتقافزُ من رأسي كأنها حِممٌ بركانيَّةٌ تفور من الغليان، وعقلي يكاد ينصهرُ، قلتُ له بصوت واهن:

- لا تَخفْ.. مجرَّد صدمة، لم يتحمَّل تلك المشاهد الَّتي رآها، وهذه هي النتيجةُ الَّتي أمامكم، ساعات قليلة وسيعود لحالِه.

قاطعني وهو ينظر إلى والدته ويقول:

- هل وصلتَ لنتيجة؟ هل حللتَ هذه المشكلة الَّتي باتت ترهقُنا؟

أجبتُه بغضب بسبب ذلك الصداع الَّذي ينخر في رأسي، وسؤالِه الغبيِّ المتعجِّل:

- اسمع يا هذا! أنتَ تتعاملُ مع أمورٍ تفوق إدراكَكَ الحسيَّ، ولن تصلَ لنتيجة بسرعة كبيرة كما تتصوَّر، والدتُكَ المُمدَّدةُ على السريرِ قامت بفعلٍ لم تعرفْ مخاطرَه، وهذه هي النتيجة الَّتي تراها أمامَك الآن.

لم يتفوَّه بأيَّة كلمة بعد أن سمعَ تلك الجملة، وأكملتُ حديثي قائلاً:

- كل ما أريده منكم مواصلةُ قراءة القرآن، وتحصينُ منزلكم برشِّ ملح البحر، لنُضعِفَ قوَّتَهم، ونعيدَ الأمور إلى سِيرتها الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

10

فورَ دخولي للمنزل، كنت أهيمُ بعوالم لم أدركْها من قبل، وأشعرُ بأحاسيسَ مختلفةٍ، صراع ما بين عقلي الباطن والواعي، مرة أرى نفسي أعيش واقعي، ومرة أظن أن ما يحصل مجرد أحلام يقظة، وواقع غير ملموس، أصبحتُ شخصاً مغايراً بعد خروجي من بيت العجوز، ولم أعدْ كما كنتُ، لا أعلم ما الَّذي جلبتُه منهم، التناقضاتُ تكادُ تقتلُني بسبب ما أعيشه الآن.

كنت عازماً على إعادة اقتحام ذلك العالَم الَّذي دخلتُه قبل قليل، كي أجد الإجاباتِ على أسئلتي، ذلك الصوتُ الَّذي قفزَ بذهني عندما كنتُ هناك لم أستوعبه، ولم أعرف مَن هو، فهي المرَّة الأولى الَّتي أسمعُه، هل من الممكن أن يكون تابعاً جديداً لم أكن أعلمُ بوجوده سابقاً؟ أو كيان يريد مراوغتي؟

كنت وقتَها مُجهَداً، بالكاد أسير على قدميَّ، وتفكيري يُشقيني، وصداع رأسي يزداد ضَراوة ولا يريدُ أن يُعتقَني.

جلستُ في غرفتي، وعمدتُ تكرارَ المحاولة، وقمت بتلكِ الخطوات الَّتي اتخذتُها وأنا في منزل العجوز مع أولادها، لكن محاولتي الأُولى فشلت، لم أصل إلى أيَّة نتيجة، كررتُها مرة أخرى والنتيجةُ كسابقتها.

مرَّت ساعةٌ كاملة وأنا أعيد التجربة، كلُّ مجهوداتي باءت بالفشل، بقيتُ بعالَمي لا أعرف كيف أتواصلُ مع تلك الأشياء الَّتي حدَثتْ هناك، الأمورُ كانت تفوقُ قُدراتي المبتدئة، ولا أُنكر أنَّني كنتُ مُنهاراً جسدياً.

رنَّ هنا جرس هاتفي، رأيتُ المتصلَ وقد كانت والدتي، وعندما أجبتُها قالت لي أنها موجودة في الخارج وتريد الدخول إلى لمنزل، لم أتأخَّر دقيقةً وأدخلتُها، وطبعاً كانت زيارتُها مفاجئةً لي على غير العادة، فهي لم تزرْني في منزل جدِّي ولا مرَّةً، وكعادة الزوار الجُدد دائماً يتفحَّصون كلَّ شيء، ويدقِّقون على جميع ما يرون، جَلسَتْ ثمَّ بعد ذلك واجهتْني بنظراتٍ مباشرةٍ:

- أعلمُ أنك قد فشلتَ في الدخول لعالَمهم.

جملتُها قد صدمتْني كثيراً، ولم أعرف كيف أُجيبها، وقلتُ لها:

- كيف علمتِ بكلِّ ذلك؟

قالت لي دون الإجابة على سؤالي:

- الخطواتُ الَّتي أدَّيتها ناقصة، فهناك خطوةٌ أساسيَّة لا بدَّ من أن تقومَ بها لتستطيعَ أن تذهبَ روحُك لعالَمِهم وتكشفَ كلَّ الحقائق.

قلتُ لها بعد أن شعرتُ بحماس كبير:

- ما الشيء الّذي كان ينقصُني؟

قالت لي:

- تذكَّر جيِّداً ما فعلتَه وشعرتَ به عندما كنتَ في بيت تلك العجوز، وما كان يحيطُ بك، كي تعرفَ جيِّداً ما كنتَ تفتقد.

بقيتُ صامتاً أتذكَّرُ كلَّ خطواتي، وأنا متأكِّدٌ جيِّداً أنَّني كنتُ أُعيدُ تلك الأشياءَ بكل دقَّة ولم أنسَ أيَّاً منها.

قالت لي:

- ركِّز جيِّداً، هناك خطواتٌ فعليَّةٌ ملموسة، في المقابل هناك أشياءُ حسيَّة لا بدَّ أن تشعر بها لتتجلَّى روحُك وتستطيع فتح البوَّابات.

أشعلتُ كلَّ مُحرِّكات التذكُّرِ برأسي، أريد أن أفهم ما تقوله، لأصلَ في النهاية للحلقةِ المفقودة، أكادُ أجنُّ، لا يوجدُ ما ينقصُ!

كنت أنظرُ إلى وجه والدتي وكلِّي أملٌ أن تتحدَّثَ وتخبرَني عن الشيء الناقص، بعدها يئستُ وقلتُ:

- عجزتُ عن إيجاد الأمر المفقود الَّذي تتحدَّثين عنه، علماً أنني أتذكَّر كلَّ شيء قمتُ به هناك.

قالت لي:

- بُنيَّ! هذا العالَم يريد منك الفطنةَ والتركيز، ما أولُ شيء شممتَه عندما دخلتَ بيت العجوز؟

قلتُ لها:

- رائحةُ بخور جميلة، هذا كلُّ ما أتذكَّرُه جيداً.

ابتسمَتْ بوجهي وقالت:

- هذا ما كان ينقصُك هنا، إشعالُ البَخورِ، واستنشاقُ رائحتِه لتستطيعَ إكمالَ كلِّ الخطوات، والدخول لهذا العالَم، وافهم جيِّداً أنَّ كل ما يحدث لك هناك حقيقيٌّ وليس حُلماً، والأصواتُ الَّتي ستسمعُها ستكون حقيقيَّةً ومُحِبَّة تريدُ مساعدتك، حاوِل أيضاً أن تُغلقَ الأضواء، وتُشعل الشموع، وتشعر بصفاءٍ ذهنيٍّ يُؤهِّلُكَ لدخول هذا العالَم، وترى كلَّ ما فيه بكل وضوحٍ.

قلتُ لها والحيرة تكاد تقتلني:

- لم تُجيبي على سؤالي الّذي سألتُكِ إيَّاه في البداية، كيف عرفتِ كل هذا وأنت في منزلكِ؟

أجابتني بعد أن قامَت بهزِّ رأسِها:

- هذا العالَم يكره الأسئلة الكثيرة، يريدُ منك بفطنتكَ وحِنكتِكَ حلَّ كلِّ الألغازِ بتعبِكَ وقُدراتك.

ونهضَتْ من مكانها وقالت:

- الآن سأرحل وأجعلُك تعيش حياتَك بالطريقة الَّتي تريدُ... أنت في مرحلة تدريب قاسية، لا بدَّ أن تجتازَها، وإيَّاك والاستسلام.

خرجَت بهدوء تامٍّ، وتركتْني مع الحيرة القاتلة، والإعياء النفسيِّ والجسديِّ، ومن دون أيِّ تفكير، توجَّهْتُ للخزانة القريبة، وأخرجتُ علبةَ البخور، وقمتُ بإشعالِها، وأغلقتُ الأضواءَ كما طلبت منِّي، وأضأتُ الشموع، ثم جلستُ وأغمضتُ عينيَّ، وبدأتُ بتمتمةِ تلك الكلمات الَّتي حفظتُها، وقراءة القرآن، ما هي إلا دقائقُ حتَّى شعرْتُ أنني وصلتُ إلى مرحلةِ التجلِّي، وروحي غدت خفيفةً كالريشة، وفُتِحَتْ بصيرةُ ذهني، لأنفصل كلِّيَّاً عن عالمي الحقيقي، وأجد نفسي حاضراً في المكان نفسه الَّذي كنتُ فيه قبل ساعات، لكن هذه المرَّة الصورةُ مختلفةٌ تماماً عن تلك، كان كلُّ شيء حولي واضحاً وجليَّاً.

صحراءُ مترامية الأطراف، والشمسُ فوق رأسي مباشرةً، والجوُّ العامُّ معتدلٌ ليس بالحارِّ كثيراً أو البارد، لم أرَ أي شيء سوى تلك الرمال الَّتي كانت تحاصرُني من كل جهة، ولا أعرفُ في أيِّ اتجاه أسير.

اتخذتُ قراراي وتقدَّمتُ لعلِّي في كل خطوةٍ أخطوها تتضحُ الأمورُ وأرى شيئاً مختلفاً، هنا سمعتُ ذلك الصوتَ الَّذي خاطبَني ولم أعرف مَن هو وقال:

- الهامسُ محبوسٌ بفعل فاعل، كلُّ ما عليك هو أن تُحرِّرَه بقدراتك الجليلة المدفونة في أعماقِكَ، والحلُّ بيدك.

قلتُ له:

- هل تقصد أنَّ مُهاباً المحبوسٌ؟

قال لي:

- مهابٌ يُخاطبني روحيَّاً كلَّ ليلة، ويريدكَ أن تفكَّ أغلالَه الَّتي ربَطَتْه.

قلتُ له:

- أين أجدُه الآن لأحرِّرَه من ذلك؟

- قال لي:

- ابحثْ في محيطِكَ جيداً ستراه.

التفتُّ يميناً وشمالاً، لم أجد سوى السرابِ والرمال، وتفاجأتُ بذلك الَّذي وقف أمامي، صُدمتُ مما توسَّمَتْه عيناي، كان هناك مَن هو يشبهُني تماماً الطول والعَرْضُ نفسه، بكلِّ دِقَّةٍ ليخيَّل إليَّ أنَّ هذا توءمي، أو أنَّني أقفُ أمام مرآة تعكس صورتي، تراجعتُ إلى الوراء من الدهشة وقلتُ:

- مَن أنت؟ ومِن أين ظهرتَ لي بهذه الصورة؟

أجابَني بصوتٍ يشبهه صوتي وقال:

- منذ أن بكيتَ أولَ مرَّة، منذ أنْ ضحكتَ، منذ أن اتضحَتِ الصورةُ لك، منذ أن عرفتَ معالِمَ تلك الأشياءِ وأسماءَها، منذ أن شعرتَ برجولتِك؛ وأنا أعيشُ معك، أنا ذلك الصوت الَّذي تسمعُه، الآن تراه أمامَك، يعيشُ معك في كلِّ وقت وزمان، يتابعُكَ ويدقِّقُ على كلِّ حركاتِك ورغباتِك، يفكِّر عندما تسرح، ويمسحُ عندما تدمَعُ، يقف بجانبك في كلِّ شيء، ولا يريدُ لك سوى الرُّقِيَّ.

لم أفهم منه أيَّ شيء، كلماته كانت غريبةً، لكنه كان يتحدَّث بمثل طريقتي، تعابيرُه هي التعابيرُ الَّتي أتكلَّم بها، ملامحُه نسخةٌ طبق الأصل منِّي، كان ينظر إليَّ ويبتسم، وعيناه مليئتانِ بالشوق، كأنَّه يتمنَّى لقائي منذ فترة طويلة.

قاطع لحظةَ شرودي تلك وقال:

- لن تدرك كل الخفايا في هذا الوقت، فأمامكَ طريقٌ طويل، تحتاج أن تمرَّ بالكثير من العقبات، وتجتاز جميع الدروب، أنت الآن تُصْقَلُ وتؤدِّي المهمة الَّتي خُلقتَ من أجلها.

ثم أكملَ كلامه وقال:

- دعنا من هذا كلِّه، وستعرف مَن أنا بعد ذلك، المهمةُ الَّتي أتيتَ من أجلِها تحتاجُك؛ لأنَّك الآن محاطٌ بالأعداء الَّذين يتربَّصون بك، كلُّ ما عليك في الوقت الحالي هو أن تخلِّص حُلفاءَك، التَفِتْ خلفَكَ وسترى الطريقَ الَّذي سيوصلُكَ.

استدرتُ خلفي مثلما قال، ووجدتُ ذلك البيتَ الصغير، مِن بعيدٍ كنتُ أظنُّ أنَّه كوخٌ خشبيٌّ، وعندما اقتربتُ منه كان بيتاً طِينيَّاً، ذا طرازٍ قديم، لم يكن هذا المنظرُ معتاداً بالنسبة لي، كان الباب مغلقاً بإحكام شديدٍ عندما مددتُ يدي لأفتحه، ووجدتُ صعوبةً بالغةً.

سمعتُ صوتَ ذلك الشبيهِ وهو يقول:

- ردِّد ما أقول؛ ستُفتحُ الأبوابِ.

لم أتردْ لحظةً ونفَّذتُ كلّ ما قالَه، ما هي إلّا ثوانٍ وفُتِحَ البابُ من تلقاء نفسه، لم أتصوَّر أن هذا الكوخَ الصغيرَ من الخارج يمكن أن يكون واسعاً كلَّ هذه السَّعةِ من الداخل، أمرٌ غريبٌ جداً، في الداخل الكثيرُ من المساحات الكبيرة، وفي نهايته كانت غرفةٌ صغيرة، بابُها ذو لون أحمر، اقتربتُ منها؛ لأنها الشيءُ الوحيد اللَّافتُ للنظر، خاصةً أنَّ كل المساحات الباقية كانت مفتوحةً ولا تحتاج للتدقيق، اقتربتُ أكثر، وتمتمتُ تلك التَّمتماتِ، وما إنْ وصلتُ ليفتح البابُ كسابقه، تقدمتُ بحذر شديد، وعند دخولي رأيتُ شيئاً جعلني أعيشُ بحالة من العَجَب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

رأيتُه مصلوباً بسلاسلَ من حديد على أخشابٍ متعامدة، ورأسُه واقعٌ على كتفِه، كأنه قِلادة تتدلَّى من على عنقِه، غائبٌ عن الوعي، خائرُ القُوى، حتى تلك الهيبةُ الَّتي كنتُ أراه بها قد ذابَتْ من على وجهِه، ولم أرَ سوى الشُّحوب، تابعي مهابٌ مُقيَّدٌ بلا حراك، لا أدري مِن أين أبدأ، كان منظراً مؤلماً بالنسبة لي، قلبي كاد يذوبُ عليه من الخوف.

تقدَّمتُ نحوه بمحاولةٍ مِني لأفكَّ تلك الأغلال الَّتي ثُبِّتَتْ بإحكامٍ على يدَيه وقدمَيه، إلَّا أن هناك شيئاً قد منعني، نظرتُ إلى يميني لأجد شبيهي يقول:

- إيَّاك أن تقترب، هناك قواعدُ خاصَّةٌ لفكِّ تلك القيود؛ أهمُّها معرفةُ مَن وراءَ كل هذا.

لم أجد أيَّ سبيلٍ سوى أنَّني كنتُ محتاراً ما بين سماع كلامِه، ولَهْفَتِي مِن أجلِ إنقاذِ مهاب مما هو فيه، وقلتُ بعدها:

- لن أصبرَ أكثرَ من ذلك، لن أصبرَ أكثرَ من ذلك، أريدُ معرفة ما هي القواعد الَّتي تخلِّصُه مما هو فيه، وأخبرْني مَن الَّذي فعلَ كلَّ هذا؟

قال لي بهدوء:

- هذا ما اقترفَتْهُ يداكَ.

عقدتُ حاجبيَّ مستغرباً مِن حديثِه وقلتُ:

- وما الَّذي فعلَتْهُ يداي بنظرك؟ كيف لي أن أوذيَ مهاباً؟!

أجابَ بثقة:

- إلى الآن لا تعرف التمييزَ بين عدوِّكَ وصديقِك، تظنُّ أن جميعَ الناس مثلَكَ، يفكِّرون مثلَ تفكيرِكَ؟! لا يُريدون أذيَّة أحد، كل همِّهم الابتعادُ عن البشر والبحثُ عن الهدوء؟ وترى أن كلَّ مَن يُقدِّم لك نصيحةً محبٌّ؟ غيِّرْ تلكَ النظرةَ، فليستْ كلُّ كلمةٍ جميلةٍ مفيدةً؛ لأنَّ خلف تلك الكلماتِ بواطنُ بشعة.

قلتُ له بحَيرةٍ واستياء:

- يكفي يا هذا! عقلي لا يستطيع استيعابَ كل ما تقول، أوضحْ كلامَكَ بدقَّةٍ أكثرَ لأفهمَ ما الَّذي تريدُ الوصولَ إليه.

هزَّ رأسَه وقال:

- انظر إلى يدَيكَ الآن.

نظرتُ مثلما قال، والمفاجأة هنا أنَّ الخاتمَ الّذي أعطاني إيَّاه خالي شملان، موجودٌ في أحد أصابعي، وما إن نظرتُ إليه إلّا وشعرتُ أنَّ الصداعَ قد تأجَّجَ في رأسي بسرعة فائقة، لم أستطع مقاومةَ كل ذلك، شعرتُ أنَّ رأسي يكادُ ينفجر، ثوانٍ وزالَ كلُّ ذلك الألم، نظرتُ إلى إصبعي أريدُ أن أخلعَ الخاتمَ، لكنّي لم أجدْه.

التفتُّ إلى ذلك الشبيه، لأجدَ الخاتمَ بيده، والذي قال بدوره:

- كلُّ ما يجري لك ولمهاب بسبب هذا الخاتم، الَّذي يهلكُ عافيتَكَ ويحبسُ خُدَّامك؛ لأنَّه هو مَن فعل بك ذلك، لا يُريدك أن تكون بأفضلِ حالاتك الروحيَّة، ويريدُ أن يؤذيَ كلَّ أعوانِكَ، وتفقدَ الثقةَ بنفسك، وتفشلَ في كلِّ مرة تريدُ بها إنقاذَ أحد، معتقِداً أنه الأصلحُ والأكفأ منكَ لهذه المَهمَّة، فهو يراك حشرةً لا تستحقُّ أيّاً من تلك الكرامات، إنَّ الحسدَ والحقدَ اللّذَينِ بداخله قد مسحَ كلَّ قطرة ودٍّ ناحيتكَ.

قلتُ له متسائلاً:

- انتظر!! ماذا تعني؟! هل تقصدُ أن خالي شملان وراءَ كلِّ تلك الأحداث؟!

ابتسمَ بوجهي وقال:

- هو أوَّلُ الأعداء الَّذين قذفَتْهم الأقدارُ في طريقكَ، ولن يرتاحَ حتى يراكَ مكسوراً خاسراً كلَّ محاولاتِك، ومحبَطاً في كل ما تقومُ به، الأمر بالنسبة له مسألةُ وقت، هو لا يؤمنُ بك بتاتاً، لكنَّه يخاف من أعوانك، فقام بذلك الفعلِ يُريد قتلَ وحرقَ كلِّ مَن يقفُ بجانبِكَ، وأول خطوةٍ هي الَّتي تراها أمامكَ الآن، بعد أن ألبسكَ هذا الخاتمَ الَّذي يسكنُه أحدُ خَدَمِه، الَّذي أسرَ مهاباً وحبسَه بتلك الطريقة، واستطاعَ أن يسيطرَ على رأسِكَ، وأفقدَكَ التركيزَ بسبب الصداع الَّذي تشعرُ به ما بين الحينِ والآخر.

قلتُ له:

- هذا يعني أن الخاتمَ به خادمٌ قام بكل تلك الأفعال، كنتُ أعتقد...

قاطعني قائلاً:

- لا تكمِلْ فخادمُ الخاتمِ مربوطٌ مع خالكَ شملان؛ لأنه هديَّةٌ من جدِّكَ عزَّام، وهو أحدُ عفاريت الجنِّ، ذو سُلطةٍ عالية، أكبر من سُلطة مهاب، الَّذي سقطَ بسرعة كبيرةٍ بعد أن سيطروا على جزء مِن رُوحك، فضعفُ مهُابٍ بسبب ضعفِكَ، واليومَ هو مقيَّدٌ.

شعرتُ بغضب شديد، واجتاحني الكثيرُ من التساؤلات الَّتي تضربُ برأسي، لماذا يحمل بقلبه كلَّ هذا الحقد والكره لي؟ جدِّي عزَّام قد أوصاه بي، لماذا

يخون تلك الوصيَّة وثقتي به؟ لو كان أمامي لعرفتُ كيف أتصرَّف معه.

قاطعَ لحظاتِ تفكيري تلك وقال:

- أكبر خطأ ما تفكِّر به، عاملْ أعدائَكَ بنفس الأسلحة الَّتي يتعاملون بها معك، العينُ بالعين.

قاطعتُه قائلاً:

- السؤال الَّذي لم أجدْ له أيَّ إجابة من أنتَ؟

قال لي بعد أن استدارَ وهو يُعطيني ظهرَه بالكامل:

- ركِّز جيداً على هدفِك، ولا تسألْ كثيراً كي لا تتشتَّتْ، الوقت ليس لصالِحكَ، السيطرة تزداد على أعاونِك، سنضعُ أمامكَ كلَّ الحلول الَّتي ستساعدُك على إعادة هيمنتكَ مرةً أخرى.

اختفى بسرعة وتلاشى كلُّ شيءٍ من أمامي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

لم أجد نفسي إلَّا وأنا جالس بمكتبة جدِّي الَّتي دخلتُها أولَ مرة، مُلِئَ سقفُها بدخانِ البخور، كنتُ ما بين الوعي والهيام، لم يكن هناك أيُّ شعور بأيِّ ألمٍ سِوى الخيبةِ الَّتي استنزفَه وجع الخيانة والغدر، الدماء تحتقنُ بعروقي من شدَّة الغيظ، كم أتمنَّى رؤية خالي شملان كي أضربَه وأشتمَه وأُذيقَه مُرَّ كلِّ ما فَعلَ بي، لماذا هذا الحقيرُ يكرهني إلى هذه الدرجة؟ كيف تُسوِّلُ له نفسُه الدنيئةُ أذيَّتي وأنا ابن أختِه؟ لم أكن يوماً أحمل بقلبي له سِوى الخير، وكنتُ أظنُّ أنه الشخصُ الَّذي سينقذُني من أيِّ أذىً.

لحظة! لماذا لم أرجعْ إلى لمكان الَّذي انطلقتُ منه؟ لماذا أنا جالسٌ في هذه المكتبة، قمتُ من مكاني متفحِّصاً كلَّ زاويةٍ من زواياه، فأنا على علم أكيدٍ أنَّ وجودي هنا لم يكن بمحضِ المصادفة، بل وراءَه مغزىً كبير، فلا مجالَ للمُصادفات، هذا ما أيقنتُه منذ دخولي هذا العالَم.

سمعتُ صوتَ شيءٍ قد سقطَ، وجَّهتُ نظري ناحيةَ ذلك الصوت لأجد أحدَ الكتبِ قد وقع من على أحد الرفوف، أمسكتُه وبدأتُ أستكشفُ غلافَه الَّذي كان جِلديَّاً فاقعَ اللونِ، على عكسِ أوراقِه الَّتي تُوحي بأنَّه قديمٌ وعمرُه يفوق عمرَ جدِّي بقرون، ولم يكتب عليه أيُّ شيء، بل كان أحمرَ بالكامل، كنتُ مرتاباً ومستغرباً، لِمَ لم أُلاحِظْهُ من قبلُ؟ ومَن الَّذي أسقطَ هذا الكتابَ بهذه الطريقة؟ ولماذا يريدُني أن أقرأه؟

فتحتُه لأجد صفحاتِه قد كُتِبَ بداخلِها الكثيرُ من الكلمات، كل ورقة كانت ممتلئةً بالكامل، الأحرفُ كُتبت بخطِّ يدٍ عربيٍّ قديم، كنتُ أقلِّب الصفحاتِ كثيراً، أريدُ أن تقعَ عيني على أيِّ شيء يدلُّني على فائدة هذا الكتاب، أو فائدةِ ما فيه.

جلستُ على أحد الكراسي الموجودة، وبدأتُ رحلةَ البحث، الصفحاتُ كما هي لم تتغيَّر أبداً، مملوءةٌ بالكلام الكثير وغيرِ المفهوم، شيء بداخلي يحثُّني على المواصلة، أغلقتُه بعد أن شعرتُ بالإجهاد، ثم أخذتُه معي وانطلقتُ إلى غُرفتي، وبداخلي حَيرة واضطرابٌ من المواقفِ الَّتي أقعُ بها، ولا أجدُ لها أيَّ تفسيرٍ سِوى الضغطِ الشديدِ الَّذي يُلازمني، أريدُ السبيلَ للوصول لحلٍّ كي أخلِّصَ مهاباً ممَّا هو به، وكلِّي يقينٌ أن جميعَ الحلول موجودةٌ في هذا الكتاب، وهذا العالَمُ الَّذي أعيشُ به الآنَ لا يُعطيكَ الإجاباتِ على طَبَقٍ من ذهبٍ، بل يتفنَّنُ بحياكة الألغاز، ويستنزفُ طاقتَكَ لتصلَ إليها، هذه طريقتُهم المتعِبةُ في التدريب.

مدَّدْتُ جسدي على فِراشي، أنظرُ إلى السقفِ متأمِّلاً، فأنا الآن وحدي أخوضُ معركةَ اكتشافِ الحلولِ؛ لأستطيعَ إنقاذَ وتعطيلَ أو إبطالَ قوة ذلك الخادِمِ الَّذي أَسَرَ مهاباً، مستعيناً بهذا الكتاب، وأنا على ثقةٍ تامَّةٍ أنَّني سأجد ضالَّتي المنشودةَ به، بعيداً عن الشيخ زهران وذلك الشَّبيه، ليس أمامي الآن سِوى أنْ أبحثَ عنها بنفسي.

وبينما كنتُ شارداً بأفكاري سمعتُ طرقاتٍ على باب الغرفة.

اتَّجهتُ إليه، وعند فتحِه وجدتُ خلفَه خالي شملان، يقفُ بجسمه النحيلِ وعينيه الَّتي تتحرَّكُ بكلِّ مكان، فهذه المرَّةُ الأولى الَّتي أُلاحظ تلك التَّصرُّفات الَّتي يقوم بها، لقد أصبح بنظري إنساناً مريباً وغيرَ مُريح، وكلُّ تصرُّفٍ يقوم به لا أرى له سبباً واحداً، إلا أنَّ هذا اللَّعينَ يريدُ إيذائي، ولا يريدُ الخيرَ لي.

يبدو على وجهِكَ التعبُ، أين كنتَ طوال الفترة الماضية؟ بحثتُ عنك كثيراً!

هذا ما قالَه لي عندما فتحتُ الباب، ومِن بعدها دخلَ إلى الغرفة مِن دون حتى أن أطلبَ منه ذلك، وجلس على أحد الكراسي بكلِّ وقاحة، لا أدري بتُّ أرى أيَّ فِعْلٍ يقوم به ينمُّ عن شرٍّ، دائماً أصحابُ الوجهَين يتلوَّنونَ كالحرباء، ويتأقلمون بسرعة كبيرة.

- كنتُ مشغولاً قليلاً في بعض الأمور الخاصة.

كانت هذه إجابتي على سؤاله، بينما كنتُ أغلي حقداً وغِلَّاً من الداخل، ولا أُنكرُ أنَّ عينيَّ أيضاً استشاطتا غضباً عليه، بينما يوجدُ شيءٌ في أعماقي يحثُّني على السَّكِينةِ والهدوء، التحكمُ بالمشاعرِ وعدمُ التهوُّرِ مطلوبان حتماً في هذه المواقف، وهو أهمُّ الدروسِ الَّتي تعلَّمتُها منذ دخولي عالَم الروحانيَّات.

لم تستقرَّ عيناه على شيء محدَّدٍ منذ اقتحامِه غُرفتي، كانت تقلِّبُ المكانَ بسرعةٍ وبكلِّ الاتجاهاتِ، كأنَّه يبحث عن شيء ما، أو يريدُ معرفةَ مَن معي فيها، كنتُ أُراقبُه بدقَّةٍ متناهية، فأنا لا آمَنُ من أفعالِه.

- ما الَّذي تبحثُ عنه عندي؟ هل أضعتَ شيئاً وتريدُ إيجادَه هنا؟

هذا ما قلتُه له، بعدها ابتسمَ بسرعة، كأنَّه لاحظَ مُراقبتي له، ويريدُ تداركَ الموقف فقال:

- أتذكُرُ الخاتمَ الَّذي أعطيتُكَ إيَّاه قبل يومَين؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، بعدَها أكملَ حديثَه:

- أرجو أنْ تُعيدَه لي، فقد أعطيتُكَ الخاتمَ الخطأ؛ لأنَّه لا يُناسبُكَ، ومِن الممكنِ أنْ يُلحِقَ بك الضرر.

قلتُ له:

- وما هو برأيكَ هذا الضرر؟ ولماذا لم تكنْ حريصاً على إعطائي الخاتم الصحيح؟

قال لي وهو يحاولُ عدم النظرِ إلى عينيَّ:

- الخواتمُ تتشابهُ كثيراً، فاختلطَتْ عليَّ الأمور، وأنا أريدُ إصلاح الموقفِ كي لا يحصل شيءٌ لا نعرفُ كيفيَّة التعامل معه.

كنتُ أتمنَّى لو كان لي مخالبُ وأغرزُها في صدره، أريد أن أنقضَّ عليه وأضربَه ضرباً أطفئُ به تلك النيرانَ الَّتي في قلبي، لكن هناك شيءٌ يُحاولُ ترويضَ غُولِ الغضبِ الَّذي بداخلي، ويحثُّني على كظمِ غيظي.

انطلقتُ ناحية الدولاب الصغيرِ الملاصِق لسريري، وفتحتُ أحدَ أدراجِه، وأخرجتُ الخاتم، وقبل أن ألتفتَ إليه، انتبهتُ أنَّ الكتاب الموضوعَ فوقَ الدولابِ كان مفتوحاً على أحد الصفحات، وكلُّ ما أتذكرُه أنَّني قد وضعتُه هنا وهو مغلقٌ قبلَ قليل، لا أدري متى وكيفَ فُتِحَ على هذه الصفحة؟!

وكانت أول جملةٍ وقعتْ عيني عليها مكتوبة كالتالي:

- كلُّ مَن يريدُ بك الضررَ بالدسائس ردِّدْ بوجهِه تلك الآيةَ.

وقد كانت الآية مكتوبةً تحت الجملة بشكل مباشر، وبعدَها كُتِبَ أسفلَ تلك الآيةِ جملةٌ أخرى: "كرِّرْها أكثرَ مِن مرَّةٍ لتُضعِفَ خُدَّامَه الَّذين يدورونَ حولكَ".

استدرت إلى خالي وبدأتُ أردِّدُ تلك الآيةَ والكلماتِ الَّتي كُتِبَتْ تحتَها، دون أي تردُّد، كان شملان وقتَها يتحدَّثُ كثيراً، ويثرثر في أمور أخرى، كأنه يريدُ أن يشتِّتَ تفكيري، أعطيتُه الخاتم، ولساني لم يتوقَّف ولا دقيقة عن ترديد تلك الآية الَّتي قرأتُها في الكتاب، بعدها قام بتنبيهي على أن المبخرة خلفي مشتعلةٌ بالجمر وعليَّ أن أطفئَها، هممتُ بإطفائها، ومَن ثمَّ شعرتُ أنه يتحرَّك بخِفَّة كالزئبق من وراء ظهري، لا أعلم وقتَها ما الَّذي فعلَه، لكني متأكِّدٌ أنَّه قام بشيء ما.

بعد ذلك ركَّزتُ نظري عليه، بعد أن قال لي بشكل مفاجئ أنه يشعرُ بدوارٍ برأسه، وعليه الآن الرحيلُ، وكلُّ ما كان يريدُه هو الاطمئنانُ عليَّ وأَخْذُ الخاتم، ثم رحل سريعاً، كنتُ مركِّزاً نظري على يدَيه، خاصةً أنَّ الخاتم لم يكن معه، ولا أعلمُ أين تركَه

رجعتُ للكتاب أريدُ معرفة المزيد، وكلِّي أملٌ أن أجدَ حلولاً أخرى، تساعدُني على تخليص مهاب، تصفَّحتُه من جديد، ووقعَتْ عيني على جملة تقول: "تنفكُّ

أغلالُ المأسور، ويعود الغائبُ المكسور، ويخضعُ الظالمُ مذلولاً، بقراءةِ هذه الآيات بليلةٍ قمراء، تَسامى فيها البدرُ وعلا".

كالعادة أنا محاط بالأحاجي الَّتي لا تنتهي، هذه الجملُ تحتاج إلى تحليل كامل؛ لأفهمَ ما أريد القيامَ به، ولكن لا أعلم في أيِّ الليالي القمريَّةِ يردون مني العملَ فيها.

عاد الهمس لأذني من جديد، إنه صوتُ الشبيه الَّذي اعتدتُه؛ إذ قال لي:

- إنك في الليلة المطلوبة، القمرُ يمتلئ في كبد السماء، هذا ما يقصدُه الكتاب بالليلة القمريَّة الممتلئة، الروحانيَّةُ في هذه الليلة تتجلَّى، وتكون بأفضلِ حالاتِها، وإذا فوَّتَّها ستنتظر شهراً كاملاً لتُعيد خادمَكَ إلى مكانه، ولربما ستفقدُه إلى الأبد، ولن يعودَ الغائب.

قلتُ له مستفسراً:

- هل هناك طقوسٌ معيَّنة علَّي القيامُ بها؟

أجابني بصوته المريح:

- نعم حضِّر نفسكَ جيداً، وحاول أن تكونَ بكامل روحانيَّتِك لتصبحَ أمام كل الأمورِ الَّتي تريدها، وتردِّدُ الآياتِ الخمس، وبعدها ستجدُ كلَّ الحلول أمامَك، ركز على التسامي الرُّوحيِّ يا عدنان، أنت تعرفُ جيداً ماذا أقصد.

اختفى الصوت، وعدتُ مرَّةً أخرى أرتِّبُ أفكاري من جديد؛ لعلِّي أصل إلى نتيجة، الروحانيةُ مرتبطةٌ ارتباطاً كلِّيّاً بالصفاء الذهني، أصبحتُ ملمَّاً بأمور التجلي.

حضَّرتُ نفسي، وجلستُ على الأرض باسترخاء مغمضاً عينَيَّ، أخذتُ نفساً عميقاً بهدوء شديد، ثم كرَّرتُه بنفس الطريقة مرَّاتٍ عدة، لطردِ كلِّ الهواجس من رأسي، عدا هاجسِ استرجاعِ مهابٍ وتخليصه، أستنشقُ رائحةَ البخور الطيبة الَّتي تعيدُ إلى نفسي السَّكِينة، مردِّداً الآياتِ والأوراد وأنا في حالة خشوع، دقائقُ مرَّت وأنا على هذه الحال، حتى شعرتُ أنَّ روحي قد تجلَّت لعالَم آخر، عالَمٍ كلَّما زرتُه أشعرُ وأنا فيه بضيقٍ يجثمُ على صدري.

جدرانٌ رماديَّة أحاطَتْ بي مِن كل جانب، والكثيرُ من الكيانات الَّتي أنظر إليها من بعيد ولا أدري هل هي حقيقةٌ أم خيالٌ؟ هنا سمعت صوتَ الشبيه يقول:

- افتح عينَكَ.

نفَّذتُ أمرَه وفتحتُها ببطء، محاولاً تفادي ذاك الضوء الأبيض الساطع شيئاً فشيئاً، بدأتُ بالاعتيادِ على الوضع.

انتصبَ مهابٌ أمامي بنفس الحالة الّتي تركتُه عليها في المرة السابقة، وبهذه المرَّة كان بجانبِه كيانٌ أراه للمرَّةِ الأولى، جسدُه أحمر داكنٌ أقرب للسواد، عيناه مسحوبتان للأعلى، عروقُه منتفخةٌ كأنَّها تسيرُ على جسده المتشقِّق، أنيابُه بارزةٌ كأحد الضواري المنقرضة، ذو شعر طويلٍ يصل إلى منتصف ظهره.

كان يمسكُ مهاباً بكلِّ قوة.

- لماذا توقَّفتَ عن ترديد الآيات يا عدنان؟! استمرَّ! لا تتوقَّفْ!

أعرفُ هذا الصوتَ جيِّداً، إنه صوت مهاب، لكنَّه صوتٌ واهنٌ وخافتٌ.

انتبهتُ أنني قد توقَّفتُ عن التمتمة بسبب ذلك المنظر المهول الَّذي شاهدتُه قبل قليل، وقمتُ بتكملة القراءة بصوت منخفضٍ بخشوعٍ وتركيز عالٍ، كل ما أريده إعادة القوَّةِ لصاحبي مهاب، وإضعافَ ذلك المخلوق الَّذي كان يقف بجانبه، كنت كلَّما اقتربتُ من إكمال القراءة والعدِّ؛ أرى جسدَ ذلك الكيانِ الَّذي بجانبِه يتمزَّقُ، وتزداد الشقوقُ به، كان يتأثَّر كلَّ التأثير بما أقول، إلى أن وصلتُ للآية الأخيرة، هنا رأيتُه يسقطُ على الأرض وهو يردِّد:

- كفى..! سأموتُ إن استمريت بالقراءة، لا أستطيعُ المقاومة، ما الَّذي تريدُه منِّي أنا أنفِّذُ الأوامر؟

هَمَسَ شبيهي بأذني وقال:

- تحدَّث مع ذلك الأحمر.

قلتُ له مستفسراً:

- مَن هذا الَّذي يتمزَّقُ أمامي كلَّما زدتُ بالقراءة؟

أجابَني الشبيه:

- خادم خالِك شملان، المربوط بالخاتم، والذي أَسَرَ مهاباً، كشفتَ وجهَهُ بهذه الآيات الربَّانيَّة، وجسدُه كما ترى يتمزَّقُ أمامَك، إنَّ ما تقولُه كالسياطِ تسلخُ جلدَه، لا يستطيع الآن فعلَ أيِّ شيء سِوى الكلام.

- ما رأيكَ بعهد أقطعُه معك؟ يُرضيكَ وينقذُني ممَّا أنا فيه؟

قالها ذلك المخلوق البشع، مقاطعاً حالة الهمسِ الَّتي بيني وبين الشبيه.

- استمعْ له.

هذا ما قاله لي الشبيهُ وبعدَها سكتَ.

قلتُ له بثقة وصوت حازم:

- ومن أنت حتى أعقدَ معك عهداً؟

أجابني وهو يتأوَّه مِن الألم:

- صارم عفريتٌ أرضيٌّ، جلبني المدعوُّ شملان ببعض العزائم، وكُبِّلتُ بها، وربطَني بذلك الخاتم، وأصبحتُ تحت إمرتِه، لا أعرف طريقاً للخلاص منه، أنفِّذُ كلَّ ما يطلبُه، بعدما يُعطيني ما أطلبُ.

قلتُ له:

- يعني أنَّك تريدُ أن تُفهِمَني أن خالي يتعاملُ بالسحر؟

ردَّ على سؤالي:

- نعم يا سيدي، خالُكَ شملان ساحرٌ، ويريد الاستحواذَ على كل ما لدَيكَ.

هززتُ رأسي بأسىً بعد أن تأكَّدتُ مِن كلِّ شكوكي وقلتُ:

- وما هو ذلك العهدُ الَّذي تريدُ عقدَه معي؟

قال لي وهو جاثٍ على ركبَتَيه ويتنفَّس بمشقَّة:

- سأُعيدُ لك مهاباً على هيئته السابقة، وأحلُّ لك قيودَه، بشرطِ أن لا تُكملَ قراءتَكَ ولا تؤذيَني أكثر.

قلتُ له:

- ومَن يضمنُ لي أنَّك ستفي بعهدِك؟

قال لي بتوسُّل:

- سيدي بيدكَ كلُّ شيء، وتعلم كلَّ شيء، ولن نُخلِفَ بأيِّ شيء، وفوق هذا كله سأنتقم لك من الَّذي سلَّطَني على مهاب، لديك ما يجعلُني أسيراً لإمرَتِكَ، مفاتيحي كلُّها بيدِكَ، أنتم سُلالة لن تتركَنا نرقدُ بسلام إن أخلفْنا عهدَنا.

قلتُ له:

- وماذا سأستفيدُ منك لو فكَكْتُ وثاقَك؟ وأنتَ تعلمُ أنَّ باستطاعتي القضاءَ عليك وتحرير مهاب.

أجابني وهو يلهثُ:

- عيناكَ يملؤها الغضب، ويتطايرُ منها شرار الانتقام، وأنا مَن سينتقم لك، أنتَ لا تحبُّ الغادرِين، الَّذين يُضمرون لك الشرَّ بعد أن ظننتَ بهم خيراً.

قلتُ له وأنا عاقدٌ حاجبيَّ كأني فهمتُ ما يرمي إليه:

- تقصد أنَّك ستنتقمُ من شملان؟

أجابني:

- في الوقت الحاليِّ أنا مَربوطٌ بذلك الخاتم، والعقدةُ لن تُفكَّ إلَّا من خلالك، أطلقْ لي العنان وفُكَّ وثاقي وسترى ما سأفعلُه بذلك الوغد.

تدخَّلَ الشبيهُ قائلاً:

- عندما تفُكُّ قيدَ خادمٍ مربوطٍ بساحر أولُ ما يقوم به هو الانتقامُ من الساحر بشكل عاجل؛ حتى لا يعودَ للسيطرة مرةً أخرى، فعالَـمُنا حالُه حالُ عالَم البشر، الخادم الَّذي يربطُه الساحرُ يصبح مثل العبد عنده، وبمجرَّد فكِّ تلك الطلاسمِ ينتقمون ببشاعة وحشيَّة وبطرقٍ شتَّى.

لا أعلمُ وقتَها ما الرعشةُ الَّتي سرتْ في جسدي وقلتُ:

- تقصد أن "صارم" سيقتُلُ خالي شملان؟

أجابني وقال:

- هذا العُرْفُ السائد في هذا العالَم، إلَّا في حال لو كان شملان يملك خدماً آخرينَ يحمونَه من الخطر القادم إليه.

قلتُ له حائراً:

- أنتَ تعرف أنه عفريت، والعفاريتُ لا تصدقُ أحياناً، فلديهم الكثير من الحِيَلِ والخدع، من الممكن أنه يكذب ليخلِّصَ نفسَه من عذابه.

ردَّ عليَّ الشبيهُ قائلاً:

- لا تخفْ فلن يستطيع التخلُّص من العهد، فهو ميثاقٌ بينك وبينَه، وستُدان لك السيطرة من خلاله، وسيبقى تحت طوعِكَ ما لم تحرِّرْه من المعاهدة المبرمة بينكما... ثِقْ بنفسك وبقدراتِك.

قال لي صارم باستجداء:

- هل ستعفو يا صاحب العفو؟ سأصبحُ خادمَك وأحدَ أعوانِك.

أجبتُه:

- موافقٌ على اقتراحِك، ونفِّذْ ما أمرتُ به.

أعتقَ صارمٌ مهاباً، الَّذي عادتْ له هيبتُه وقوَّتُه ولمعانُ عينه بسرعة خاطفة، شعرتُ أنه يكادُ يطير، ليقول بعد ذلك:

- سأقضي على هذا العفريت الآن، كي لا يتمادى أو يُخلِفَ عهدَه.

رفعتُ يدي ناهياً مهاباً عمَّا سيقوم به وقلت:

- نحن لا ننقضُ وعودنا وعهودَنا، ولا نقضي على أعوانِنا، الوفاءُ بالوفاء، هذه عقيدتُنا.

ارتسمَت على وجه مهاب ملامحُ الذهول وهو ينظر إليَّ، بعدها أطرقَ رأسه مُعرباً عن طاعته لأمري.

كان صارمٌ جالساً على الأرض متألِّماً من جروح جسده الَّتي يخرجُ منها دخانٌ أسود، يريد استعادةَ قوَّتِه الَّتي تأثَّرتْ بفعل ما قرأتُه عليه سابقاً، ليقول:

- خلِّصني كما خلصتَ خادمكَ، فُكَّ وثاقي من شملان.

اقترب مهابٌ منِّي وقال:

- قل ما سأُمليه عليك، وتمتمْ بهدوءٍ ستفكُّ وثاق عزيمتِه، وتطلقُ سراحَه.

وبدأ بتلقيني تلكَ الكلمات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

لم يكن الوضعُ يختلف عمَّا كان عليه عندما فكَكْتُ أغلال مهاب، بنفس الطريقة بدأتُ بتمتمة تلك الكلمات الَّتي قالَها لي مهاب.

وما إن انتهيتُ حتَّى سمعتُ صرخةً مدوِّيةً صدرت من العفريت صارم، ظننتُ وقتَها أنه قد مات بعدما تمدَّدَ جسدُه على الأرض، وكما قلتُ لكم الدخانُ يتصاعدُ من أعلى جسمه، عمَّ الصمتُ المكانَ، وبعدها بدأتِ الأجواءُ من حولي تتغيَّرُ، نظرتُ مرَّةً أخرى لمكان صارم، لكنِّي لم أجدْه.

توجَّهتُ نحو مهابٍ وقلتُ له:

- أين ذهب ذلك العفريت؟ يبدو أنَّه نقضَ عهدَه وهرب كما توقَّعت...

ردَّ عليَّ مهاب وقال:

- عاد إلى شكلِه الحقيقيِّ الَّذي لن تستطيعَ رؤيتَه، وهو الآن تحتَ إمرتِكَ، يجول بيننا بعد أن شفَيتَ كلَّ جروحِه، وفكَكْتَ تلك السلاسلَ الَّتي كانت تربطُه بذلك الخاتم، وكلُّ ما عليكَ الآن انتظارُ النتائج.

صمتَ لبرهة ثم عاد وقال:

- المدعوُّ "صارم" أخبرني للتوِّ أنَّه تحتَ إمرتِك متى أردتَ، وعليك أن ترتديَ ذلك الخاتم الَّذي أعطاه لك خالُك شملان وتستدعيه متى شئتَ.

فكَّرتُ قليلاً وتذكَّرتُ شيئاً مهماً وقلت:

- الخاتم؟! جاء خالي وأخذَه منِّي بحُجَّة أنه ليس الخاتمَ الصحيح.

عاد مهاب وقال:

- الخاتم موجود في غرفتِكَ، خالُك قد وضعَه فيها؛ لكي يستطيع بكل سهولة التحكُّم بصارم وبك، ما يُحيِّرُني هو كيف كان شملان يعيش مع الشيخ عزام؟ كيف تدرَّب عنده؟ ألا يعرفُ أنَّك من السلالة الَّتي تُفكُّ على يدَيها كلُّ الطلاسم؟! والتي تتفوَّقُ على كل السحرة والدجَّالين والمشعوذين، كيف غابَتْ هذه الأمور عن ذهنه، وكيف له أن يعتقدَ أن السيطرةَ على أعوانكَ ستُضعِفُكَ، ألا يدري أنَّه لو غبتُ أنا أو غيري سيخرجُ الكثيرُ منَّا يتمنَّونَ خدمتَك، ومحاربةَ هؤلاء المشعوذين والذي أصبح هو واحداً منهم؟! بعضُ البشر لا ينظرون إلَّا تحت أقدامِهم، وكما ترى أعوانُك يزدادون يوماً بعد يوم.

هنا طرأ في ذهني سؤالٌ ثم قلتُ:

- أنت تقصدُ ذلك الشبيهَ الَّذي خرجَ لي من العدم؟

أجابَني بثقة كبيرة:

- نعم كما أسميتَه الشَّبيه، بالإضافة إلى صارم الَّذي هو الآخرُ تحت خِدمتِكَ الآن.

تذكَّرتُ هنا نقطةً مهمة وقلتُ:

- أين أجد الخاتم المزعوم؟

أجابني:

- ابحث بالحُجرة، وأغلبُ الظنِّ أنه تحت إحدى وسائدِكَ لتُفْرَضَ السيطرةُ عليك بكل سهولة.

فجأةً اختفى كلُّ شيء، رجعتُ إلى ما كنتُ عليه، وعندما وصلتُ إلى غرفتي، شعرت أن جسدي كان عليلاً بشكل كبير، ولم أستطعْ رفعَ رأسي بسبب الجهدِ الَّذي قمتُ به قبل قليل، كنتُ فقط أنظرُ إلى السقف.

بقيت على هذه الحالة مدَّةً من الزمن، لكنَّني تذكَّرتُ شيئاً مهمَّاً، الخاتم الَّذي لا بدَّ لي من أن أجدَه كما أخبرَني مهابٌ، فنهضتُ بعد أن استعدتُ قليلاً من قوَّتي، باحثاً عنه، وتوجَّهتُ إلى الوسادة الَّتي أشار إليها مهاب، وبالفعل هؤلاء الأعوانُ لا يخطئون بتلك الأشياء، فَهُمْ دَقيقو الملاحظة.

لبست الخاتم لأتأكَّدَ من أمرٍ مهمٍّ؛ هل سأصابُ بذلك الصداع المَقِيتِ؟ لم أشعر بأيِّ شي بتاتاً، وعلمتُ أنَّ كلَّ الأمورِ تسيرِ على ما يُرام، دقائقُ ثم سمعتُ طرقاتٍ قويةً على بابي، نهضتُ مسرعاً، أفكِّر من ذلك الشخص الَّذي يطرقُ بهذه الطريقة الهمجيَّة، فتحتُ البابَ وتفاجأتُ بذلك المنظر، كان خالي جاثياً على ركبتَيه، ومجرَّداً من أغلب ملابسه، ينظرُ إليَّ بجَزَعٍ وهو يلهث، وعلى جسدِه العديدُ من الجروح الواضحة، وهو يردِّد:

- أرجوكَ يا عدنان! أتوسَّلُ إليك، سامحني يا ابنَ أختي على كل الأفعال الَّتي بدرَت مني، أعلم الآن أنَّك عرفتَ كلَّ شيء، آسفٌ لأنني تجرَّأتُ عليك بتلك الطريقة، الغَيرةُ التهمَت قلبي، كنتُ أظن أنَّني أستطيعُ السيطرةَ وأَخْذ كل ما لديك، أعدُكَ أنِّي سأكون من أتباعِك، ولن أتطاولَ عليكَ مرَّةً أخرى.

لم أُجبْ عليه، كنت أنظرُ إليه باستحقار، وسطَ الخذلان الداخليِّ الذي يأمرُني برفض المسامحة، بل على العكس كان يريدُ مني أن أتخلَّص منه وأقضي عليه، كان ردِّي على ما قال أنَّني أغلقتُ الباب بوجهه، ورجعتُ إلى سريري.

كان يصرخ في الخارج بأعلى صوته، بينما هَمْسُ مهاب كان يقول:

- أعوانُه الآن هم من يحاولون إنقاذَه من هجماتِ صارم، لكن هُم أضعفُ من ذلك، لن يصمدوا كثيراً، وشملان خلالَ ساعة أو ساعتَين مِن الممكنِ أن يهلك.

في هذه الأثناء رنَّ هاتفي النقال، لأرى أنَّ المتصلَ والدتي، كنتُ أقول بيني وبين نفسي، هل والدتي تريدُ التدخُّل من أجل خالي؟ قطعتُ لحظاتِ التساؤل السريعةَ ورددتُ عليها، وكانت أولَ جملة سمعتُها منها تقول:

- مِن أجل أمِّك سامحْه، هذا المعتوهُ لم يعرفْ نتائجَ تلك الأفعال الَّتي قام بها، الحسدُ أولُ مَن يَسُدُّ عيونَ القلب عن الحقائق، وأخي لم يرَ بعينَيه، بل رأى بحقدِه، سامحه من أجلي.

كنتُ صامتاً لا أعرف كيف أجيبُ طلبَها، تواصلتُ مع مهاب بالهمس، أريدُ أخذَ رأيه بشأن ما تقولُه أمي، فأجابَني:

- هذه القراراتُ لا نتدخَّل بها أبداً، لدينا مهامُّ نقوم بها معك، الرأيُ الأولُ والأخيرُ بيدكَ.

قلتُ لوالدتي:

- أحتاجُ لبعض الوقت يا أمي لأفكِّر.

ردَّتْ عليَّ بعصبيَّتِها المعتادة معي:

- أيها الأحمق كيف لك أن تُجيبَني بهذه الطريقة؟! بعد كل هذه التوسُّلاتِ مِن المفروض عليك أن توافق.

هنا شعرتُ ببعض الارتباكِ وقلت:

- لكن يا أمِّي...

قاطعتْني بغضب وقالت:

- اسمع جيِّداً يا هذا، مَن تظنُّ نفسكَ لتتعامَلَ معي بهذه الطريقة؟ أنا والدتُكَ، ولا تتحدَّث معي باستعلاء، ما تملكُه أملكُ منه الكثيرَ ومِن زمن طويل، نفِّذ هذا الأمرَ ومِن دون مناقشة، وقُل لشملانَ أنَّك ستخفِّفُ هذا العذابَ بشرط أن يسكنَ خارج المنزل، ويقطعُ كلَّ علاقتِكَ به، وبعدها سترتاحُ منه ومن غبائه... مهما فعلَ يا بُنيَّ يبقى هذا أخي.

لزمتُ الصمتَ لدقائقَ، ولم يكن أمامي سِوى أن أوافقَ على كل ما تقول.

بينما كنتُ رافضاً أن أسامحَه، وأتمنَّى لو أنَّني أقطِّعُه إرباً على كلِّ ما فعلَه.

- لكِ ما تُريدينَ يا أمِّي، سأتوقَّفُ عن أذيَّتِه.

هذا ما قلتُه لها، ولم أجدْ من والدتي أيَّة إجابة، سِوى أنَّها أغلقَتِ الهاتفَ بوجهي من دون أن تقول كلمةً.

أعطيتُ مهاباً الأمرَ ليبلِّغ صارماً بالتوقف، وتقدَّمتُ ناحية باب الغرفة، وعندما فتحتُه، رأيت شملان ممدَّداً على الأرض شِبهَ مغمىً عليه، والدماءُ تسيل من أعلى جسده، وعَرقُهُ كان يتصبَّب بغزارة، ورَعشاتُ الخوفِ كانت تتقافزُ مِن أطرافِه.

رفعَ رأسَه ينظر إليَّ بحسرة، ليبدأ بالبكاء، كان يحاولُ النهوضَ، وبسبب جراحِه وحالة الصراعِ الَّتي كان بها لم يقوَ على النهوض، جلسَ على الأرض وبكاؤه يتزايدُ، واختلطَتْ دموعُه مع كلماته:

- لا أدري لماذا قمتُ بكل هذه الأفعال، لن أُعيدَها مرةً أخرى، وسأبقى تحت إمرتِكَ، أنفِّذُ كلَّ ما تريد، سأتغيَّرُ أعدُكَ بذلك صدِّقني.

قلتُ له بحزم وعدم رضا:

- اسمع جيِّداً! لو كان الأمرُ بيدي لكنتَ الآن بعِدادِ الأموات، لكنِ هناك أمورٌ كانت أقوى مني جعلتني أسامحُك، وأغفر لك كل خطاياك وأفعالَكَ السيئة، ولا تظنَّ أنَّني سأعفو فقط، بل سأملي عليكَ شروطاً لا بدَّ من تنفيذها؛ أوَّلُها الخروجُ من هذا المنزل، وثانيها قطعُ علاقتِك بي، ولا تفكِّر حتى بالاتصال؛ وإذا لم توافقْ على كلِّ ما أقول فسأسلِّط عليكَ منهم مَن هو أقوى مِن سابقِه.

كنتِ أنظرُ إلى عينيه بحدَّة، كان الأسى والندمُ هما مَن يتكلَّمان داخلَه، ولم أفكِّر بالضَّعف والصَّفحِ عنه.

قام بتثاقلٍ، وهو يستندُ إلى الحائط ويُرَدِّد:

- سأفعل كلَّ ما تريد، لن ترى وجهي بعد الآن هنا.

وابتعدَ عني، ولم يتوقَّف عن البكاء، وخلفه تلك الجِراح الَّتي كانت بحقٍّ مزعجةً لكلِّ مَن يراها.

لينتهي هذا الفصلُ المتعبُ بعد صراع مريرٍ ومُرهقٍ مع هذا النوع من الأعداء الَّذي كان يتخفَّى تحت قناع الأقرباء، وهم بالفعل الأخبثُ؛ لأنهم حولَكَ طوال الوقت، ويعرفونَ كيف ومتى يُلحِقونَ بك الأذى بكل سهولةٍ ومِن دون تردُّد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

14

جرس الهاتف الآن يرنُّ، وعدنان جالسٌ في المكتبة يقرأ بعض الكتب، ولا يريد أن يقطع لحظات التركيز؛ كونه يقرأ ما ينقصُه من معلوماتٍ في غاية الأهمية، ظلَّ يرنُّ بشكل متواصل أزعجَه، فأمسك به وكان المتصل إبراهيم، فتذكَّرَ أنه على موعد معه من أجل علاج والدته الَّتي تُعاني من حالة غريبة لم يعرف أحدٌ ما أسبابُها.

- آسف كثيراً على إزعاجِكَ، وكما تعرفُ إنَّ الوضعَ في منزلنا لا يتحمَّلُ أيَّ تأجيل، الأحوال باتت تزدادُ سوءاً، وأيُّ تأخير من الممكن أن لا يكون لصالحنا.

أجابَه عدنان وقال:

- لا تقلق يا إبراهيم، غداً في الثامنة مساء سأكون موجوداً في منزلك لنستطيعَ إعادة تريبِ الأمورِ وإعادتَها إلى نِصابِها الأول.

أغلق الهاتف، ثم أغمضَ عينيه ليتواصلَ مع مهاب، من أجل أن يحضِّرَ نفسَه لمعالجة حسنة، ومعرفةِ الأسبابِ وراء تلك الحالة.

همس له مهابٌ قائلاً:

- قبل أن أقعَ تحت سيطرة صارم كنتُ قد جمعت الكثير من المعلومات عن المدعوَّةِ حسنة، وعرفتُ أنَّ هناك أموراً معقَّدةً قد قامت بها هذه العجوز، أوصلتْها لتلك المرحلة، والتي أصبحَتْ لا تعرفُ كيف تُخرِجُ نفسَها منها.

قال له مستفسراً:

- وتعتقد أننا بتلك المعلوماتِ نستطيع أن نعالجَ العجوزَ من ذلك الشيء الَّذي يهدِّدُها ويهدِّدُ عائلتَها؟

أجابَه مهابٌ:

- هناك ماردٌ من الجنِّ يسكن في تلك المزرعة، جلبَتْه حسنة من أجل تنفيذِ بعض الأمور الخاصَّة بها وبعائلتِها، والمعلوماتُ الَّتي لديَّ تقول: إنَّ الشخص الَّذي استطاعَ أن يجلب لها ذلك المارد الآنَ هو غير موجود على وجه الأرض، لذلك فقدَتْ حسنة سيطرتَها على ذلك المارد، والذي بدورِه استطاعَ أن يُحرِّرَ نفسَه من الساحر الَّذي كان يُهمين عليه.

قال عدنان مقاطعاً:

- أعرفُ الباقي يا مهاب، فبمجرد أن يتحرَّرَ الخادم من سيطرة الساحر يقضي عليه، وهذا ما حصل له.

قال له مهاب:

- في هذه الحالة الوضع مختلف، والمعلوماتُ الَّتي جمعتُها تقول: إنَّ الساحرَ مات لأسباب قَدَريَّة، ولم يكن للأعوان يدٌ بما حصل له، وبمجرَّد أن يموتَ يتحرَّرُ ذلك الخادم، ويبدأ هنا بالانتقام، وطبعاً إذا لم يجد أحداً ينتقمُ من الأشخاص الَّذين كان يقوم بتلك الأعمال لهم، وحسنة هي الشخصُ الأخيرُ الَّذي تعاملَ مع ذلك الساحر، بعد أن قام لها بعمل، لكن لم يُتمِمْهُ بسبب موته.

قال له:

- برأيكَ ما هي الطريقة الَّتي نستطيع من خلالها إيقاف هذا المارد؟

أجابَه مهاب وقال:

- كل ما علينا فعله في الوقت الراهن هو الجلوسُ مع تلك العجوز حسنة، لتكشفَ لنا بعضَ الأمور الَّتي لم أستطَعْ أن أصلَ إليها إلى الآن، وبعد حصر المعلومات الَّتي جمعتُها ومعرفة ما لديها، يمكننا أن نصل أخيراً لحل مناسب.

اختفى الهمس، وبقيَ عدنان وحيداً يكمل قراءَتَه في تلك الكتب الَّتي تركَها جدُّه عزَّام له، ليثقِّفَ نفسَه بشكل جيد، ويحظى بعلم يقوِّيه؛ ليتصدَّى للأمور الَّتي من الممكن أنْ تتطلَّبَ منه مواجهةَ الصِّعاب لوحده، مثل ما حدث في المرة السابقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

أفضل ما يميِّزُ المكانَ الَّذي أنا فيه الآن هو رائحةُ البخور، والهدوء المطبِق، والطاقة السلبية الَّتي انتشرَت في كل أرجائه، خاصةً أن الوُجُوم والترقُّبَ هو ما يُلاحَظُ على وجوه الحاضِرين؛ إبراهيم وزوجته صفية، وأسامة الَّذي كان ينظرُ للأرض وقدمُه تتحرَّكُ بشكلٍ مستمرٍّ بسبب التوتُّر الَّذي يشعر به، والعجوز كانت ممدَّدةً على السرير أشبهَ بالجثة المتيبِّسة.

- ما الخطوةُ القادمةُ يا شيخ عدنان؟

هذا ما قاله لي أسامة، بينما شعرتُ أن كلمة "شيخ" تُعطيني صفةَ التقدُّم في العمر، لكني تجاوزتُها، وأجبتُه قائلاً:

- أحتاجُ للتواصل مع والدتكم بوضعِها الطبيعيِّ لأستطيعَ جمعَ أكبر قدر ممكنٍ من المعلومات، لنصلَ إلى طريقةٍ نحلُّ بها جميعَ الألغاز الغريبة، لنستطيعَ التَّخلُّصَ من الشرِّ الَّذي يحيطُ بكم.

صمتُّ لبرهةٍ، وبعدها قلتُ:

- إذا كان لديكم أيُّ معلومة من الممكنِ أنْ نستفيدَ منها الآن فأخبِراني بها.

سكتا قليلاً وهما ينظران إلى بعضهما البعض، ثم استدارَ أسامةُ إلى عدنانَ وقال:

- لا نملكُ أيَّ شيء، نحن مثلَكَ نبحثُ عن الحقيقة.

لم أهتمَّ لإجابتِه، وطلبتُ منهما الخروج، وطبعاً لم يتردَّدا أبداً، فخرَجا مُسرِعَين، وبقيتُ بمفردي أحاولُ الاندماجَ الروحيَّ والتجلِّي؛ من أجل الوصول إلى طريقة أتحدَّثُ بها مع تلك العجوز وهي بحالتِها الطبيعية.

وبدأتُ بترديد بعض من الآيات القرآنية الَّتي أستخدمُها في مثل هذه الطُّقوس؛ لأفتح المنافذ المغلقةَ مع العالَم الآخر، والسيطرة على تلك المخلوقات الَّتي تحاولُ أذيَّتَنا.

كنتُ أقتربُ من الانغماسِ الروحيِّ، لكنَّني شعرتُ هنا بشيء غريب، كان الأمر صعباً هذه المرَّة، ليأتي الهمسُ بعدها، وطبعاً كان مهاب هو من يتحدَّث:

- ذلك الَّذي بداخلِها يرفضُ التخلِّي عن جسدِها، ويريدُ مخاطبتَك، افتح عينيكَ وترقَّب.

فتحتُ عينيَّ لأجدَ أن جسد العجوز ينتفضُ من مكانه، كأنَّها سمكةٌ قد خرجتْ للتوِّ من الماء، لتستقيمَ بجلستِها، وهي مغلقةُ العينَين مستديرةٌ نحوي لتقول

بلسانِ مَن بداخلها:

- لن تُفلحَ، أنا حاليَّاً بمصدر القوة والمسيطر، وأنتَ بنظري الآن حشرةٌ صغيرةٌ بأيِّ لحظة أقضي عليها، سأنتقمُ من تلك العجوزِ الخبيثةِ وجميعِ أفراد عائلتها بسبب البواباتِ الَّتي فُتِحت لي بعد موتِ تلك الساحرة الَّتي قد أَسَرتْني.

في البداية قلتُ له محاولاً مُسايستَه لأكتسبَ وقتاً أكثرَ؛ كي أصل للمفاتيحِ الَّتي تقضي عليه:

- ما المطلوب من العجوز لكي تتخلَّى عنها؟

أجابَني بغضب:

- المطلوبِ روحُها، واللَّعنةُ الَّتي صنعَتْها ستبقى موجودةً في ذُرِّيَّتِها، لن يرتاحوا أبداً، سنبقى معهم من جيل إلى جيل، نغلقُ جميع الدروب بوجوههم، سنقلِبُ حياتَهم رأساً على عقبٍ، مصيرُهم بين أيدينا، لن ينعموا بمتاعِ الدنيا، سنقفُ لهم في كل مكان.

قلتُ له مستفسراً:

- ما ذَنْبُ الباقين إذا كانتْ هي الفاعلةُ فقط؟

قال لي:

- سأحدِّثُكَ بمنطقِكم، ما ذنبي أنا وذنب عائلتي الَّتي أبعدَتني عنها، لقد جعلتني تابعاً لها، وكنتُ أَنفِّذُ أوامرها دون نقاش، بسبب تلك التعاويذِ والطُّقوس الَّتي فُرِضَتْ، وسيطرتْ علينا مع تلك الساحرة المحروقة.

وهذا أنا الآن بيدي كل شيء، وليس لها علَّي أيُّ سلطان، وفرصةٌ جيدة لتصفيةِ حسابي معها، والَّذي لا يعرف كيف يقتنصُ الفُرصَ سيبقى دائماً خاضعاً ذليلاً.

قلتُ له محاولاً تهديدَه بطريقة غير مباشرة:

- أعتقدُ أنَّك لا تعرفُ مع مَن تتحدَّث!

ضحكَ بصوت عالٍ، وقال:

- أعرِفُكَ جيِّداً، وأعرفُ مَن يتبعُكَ، وهذا كلُّه لا يهمُّني، ولا أكترثُ للنهاية، المهمُّ الآن الانتقامُ، ولا أريد تفويتَ أيَّة فرصة.

همس مهابٌ مرَّةً أخرى وقال:

- على ما يبدو أن حسنة ومَن كان معها أذاقوا ذلك الكائنَ الّذي يعيشُ بداخلِها جميعَ أصناف العذاب، وهذا النوعُ لديه رغبةٌ عارمة في الانتقام.

خاطرتُه بذهني قائلاً:

- ما الحلُّ إذن برأيكَ؟

أجابني مُهاب:

- لا بدَّ من كسبِ وقتٍ أكثرَ للوصول لطريقةٍ ما، مِن خلالها نعرفُ كيفيَّة التعامل معه.

أخذتُ نفساً عميقاً، وأنا في داخلي رافضٌ فكرةَ التأجيل، والتي مِن الممكن أن تُلحِقَ الأذى بحسنة، فهي الآن بحالة مُزرية جداً، وبالكاد تأكل، وجسمُها ناحل، وعيناها شاحبتان.

عمَّ الهدوءُ من جديد، ورأسي ممتلئٌ بالأفكار والتناقضات، ليحصلَ بعدها شيءٌ قلبَ كل الموازين، جسدُ حسنة الآن ينتفضُ مرَّةً أخرى، صرخاتٌ متقطِّعةٌ تخرج من فمِها، ولا أدري لماذا يحدثُ كل هذا، الإضاءةُ كانت تنطفئ وتشتعلُ من تلقاء نفسِها، موجةٌ من الهواء الساخن الَّذي شعرتُ بلفحاته على وجهي، حالةُ اضطراب وارتباكٍ جعلتني مذهولاً، كأن حسنة تتصارع مع أحدِهم، دقائقُ ثمَّ صرخَتْ صرخةً مدوِّيةً.

لحظة! لم يكن الصوتُ صوتَها، بل صوت من كان داخلَها، رأيتُ في هذا الوقت أنَّ عروقَها بارزة، ويكاد الدمُ ينبجِسُ منها ويتدفَّق، ثمَّ بعدها عمَّ الهدوءُ ليسقطَ جسدُها على الفِراش من جديد.

نهضتُ من على الكرسيِّ لاهثاً، ولا أعرفُ ما سبب الحالة الَّتي كانت تعانِيها، في هذه الأثناء دخلَ كلٌّ من إبراهيمَ وأسامةَ وصفية الغرفة، وهم يريدون معرفةَ ما الَّذي حدث بالضبط، بصراحةٍ لم أعرفْ كيفَ أجيبُهم، ليتقدَّمَ الثلاثةُ نحو والدتهم، وعلى وجوهِهم الدهشةُ المختلطة بالفرح، نظرتُ ناحيةَ حسنة لأجدَها تفتحُ عينَيها وهي تمدُّ يديها باتِّجاهِهم.

التمَّ الجميعُ حولها واحتضنوها دفعةً واحدةً، وهم يقبِّلُونها فرحين، وهي تبادلُهم نفسَ المشاعر، سمعتُ صوت إبراهيم يقول:

- عادت والدتي إلى حالتها الطبيعية، أعرفُ نظراتِها الحقيقية جيداً.

تقدَّم ناحيتي ليُمسكَ بيدي يُريد تقبيلَها:

- شكراً يا شيخ عدنان.

كم أكرهُ هذه التسمية!

نظرتُ إليه وأنا أحاولُ سحبَ يدي منه، ليقول:

- بالفِعْلِ بِبرَكَتِكَ يا شيخُ عادت والدتي كما كانت، لم يكذبِ الَّذين كانوا يتحدَّثون عن قُدراتِك.

هززتُ رأسي محاولاً التجاوبَ معه، وفي داخلي سؤالٌ يتردَّدُ: "ما الَّذي حصل؟".

كنت أريدُ دقيقةً واحدةً حتى أتواصلَ مع مهاب؛ لأعرف ما الَّذي جرى وغيَّرَ وضعَ حسنة، من حال إلى حال.

- فرصتُكَ الآن لمعرفة الحقيقة منها.

همسَ بها مهابٌ.

قلتُ له:

- كيف تغيَّر حالُها بهذه السرعة؟

أجابَني:

- صارم تدخل.

قلتُ له: مَن صارم؟

ردَّ قائلاً:

- الخادمُ الجديدُ الَّذي تملَّكْتَهُ من شملان.

آه! لقد نسيتُ مِن الفوضى الَّتي حدثَت.

قلتُ:

- لماذا تدخَّلَ؟ وبهذه السرعة!

أجابني:

- هذا النوع من العفاريت لا ينتظرُ الأوامِر، المهمُّ عنده إنقاذُ سيِّدِه مِن أيِّ موقف، وقد شعرَ بالخطرِ مقبلاً إليك، فتدخَّلَ وقام بالصراع مع ذلك الكيان الَّذي في داخلِها، وبعدَها كبَّلَهُ بالطريقة نفسِها الَّتي رأيتَني بها عندما أَسَرَني.

بدأَتِ الأمورُ تتَّضحُ بشكل كبير، بينما لا يزالُ الثلاثة فرحين بتعافي والدتِهم، ويتحدَّثون معها، ولا يريدون أن يبتعدوا عنها لحظةً.

- لا يوجد وقتٌ يا عدنان، الكيانُ الَّذي بداخلها قويٌّ جدَّاً، ومن الممكن بأيَّة لحظة أن يتخلَّصَ من حالة التقييد، صارم لا يزالُ يسيطرُ على الوضع، وفي أيِّ

وقتٍ من الممكن أن تنفكّ الأغلال.

قلتُ له:

- ما المطلوب مني الآن؟

قال:

- استجوِب حسنة بسرعة، وحاول أن تعرفَ منها، ما الَّذي كانَت تفعلُه في وقت سابق، ومَن الشخصُ الثالث الَّذي كانت تتعاملُ معه، وكان وسيطاً بينها وبين الكيان، حسنةُ ستساعدُك كثيراً، وتعطينا العديدَ من الإجاباتِ على الأسئلةِ الَّتي سنعرفُ من خلالِها كيفيَّةَ طرد هذا الشيطان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

- لا يوجد متَّسعٌ من الوقت، كلُّ ما علينا الآن هو محاولةُ معرفة الحقيقة من والدتِكم، فالخطرُ لا يزال موجوداً، وأمُّكُم إلى الآن لم تتعافَ بشكل كامل.

هذا ما قلتُه لإبراهيم وأسامة وصفية، الَّذين انتبهوا لِمَا أقولُ، وردَّ أسامةُ عليَّ:

- ماذا تقول يا شيخ! كلُّ شيء عاد إلى سابق عهدِه ووالدتي كما ترى تتحدَّثُ وهي بصحة جيِّدة.

أخذتُ نَفساً عميقاً وقلتُ:

- الأمر فوقَ ما تتصوَّر، الكيانُ الَّذي بداخلها مقيَّدٌ بشكل مؤقَّت، ولم نقضِ عليه بشكل كامل، ومِن الممكن بأيَّة لحظة أن يعودَ ليفرضَ سيطرتَه، الَّتي ستكون هذه المرة أكبرَ بكثير من المرَّات الفائتة، والدائرةُ ستَّتسعُ، ومِن المرجَّح أيضاً أن تطالَكَ أنتَ وإبراهيم، الوضعُ لا يزال حسَّاساً جداً، ووالدتُكما هي الَّتي بيدِها كلُّ المفاتيح.

كانت حسنة وقتَها تستمع بهدوء، وملامحُ وجهِها لا تزالُ شاحبةً، رغم الابتسامة الجميلة الَّتي اختلطَتْ مع حالة الوُجُوم، فهي تعرفُ أنَّ في جعبتِها قصةً إذا قالتْها فستفكُّ جميعَ الأسرار، وربَّما ستصلُ بنا في النهاية إلى الحقيقة، قَطعَتْ حالةَ التردُّدِ تلك وقالت:

- بالفعل كلامُه صحيح، لا بدَّ من الإسراعِ وقولِ الحقيقة.

قلتُ لها متلهِّفاً:

- احكي لنا ما حدثَ بشكل مفصَّلٍ، ومِن أين بدأَتِ الحكايةُ، لكي نعرفَ كيف نساعدك.

اعتدلَت في جلستها بعد أن شربَت الماءَ الَّذي كان بيدِ أسامة، ونظرَتْ لأعلى السقف، وأخذَت تنهيدةً طويلةً متقطِّعةً، كأن بداخلها جبلاً من الثلج يتحطَّم بفعل الضغط، وقالت:

- قصَّتي بدأت عندما تقدَّم للزواج بي والدُ أسامةَ وإبراهيم، بعد وفاةِ زوجته الأولى أم نوح، كنتُ الزوجةَ الثانية له، والدُهم كان يكبرُني تقريباً 14 سنة، وبحكم صلة القرابة الَّتي بيننا وافَقَ أهلي على زواجي منه، دون الرجوعِ لرأيي، فأنتَ تعلمُ العائلاتِ في بداية الثمانينات لا تنظرُ كثيراً لرأي المرأة، وسارت الأمورُ كلُّها بسلاسةٍ وبدون تعقيد، حتَّى وجدتُ نفسي في بيت زوجي، الَّذي كان عمرُه وقتَها 36 عاماً بينما أنا كنتُ في الثانية والعشرين من

عمري، وكان نوحٌ يبلغُ من العمرِ سنتين، لم أبخل على ذلك الفتى الصغير بالعناية والرعاية، بل عاملتُه مثلَ ابني، وهو ما جعل والدَهم يطمئنُّ عليه معي، ونوحٌ أصبحَ متعلِّقاً بي كتعلُّقِه بوالدتِه، ولا يُناديني سوى بـ(ماما)، إلى أن حملتُ بأسامة وأنجبتُه، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ أن ينتقلَ الاهتمامُ من نوحٍ إلى أسامة، فاستحوذَتْ عليَّ غريزةُ الأمومة عندما رأيتُ طفلي أسامةَ قطعَةً من قلبي استقرَّتْ بين يديَّ، وما كان نوحٌ سوى ابن زوجي الَّذي ربَّيتُه فقط.

كنتُ دائماً أطردُ من رأسي فكرةَ أنَّني أُعاملُ أسامةَ أفضلَ من نوح، وأحرص بشكل كامل على معاملتِهم بنفس الطريقة، لكن كانت عاطفتي تغلبُني دائماً، وتراني أميلُ إلى ابني الحقيقيِّ، إمتدَّ هذا الصراعُ إلى أن بلغَ أسامةُ الثانيةَ مِن عمره، وبعدها حملتُ بإبراهيم، الَّذي هو الآخرُ أخذ الجزء الثاني مِن قلبي، هنا لم يتبقَّ لنوح أيُّ مكان، وعُنصُريَّتي تغلَّبت عليَّ، وأصبحتُ أتعامل مع نوح بشكل مختلفٍ عمَّا كان في السابق، وأعطيتُ الأولويَّةَ لأولادي أسامةَ وإبراهيم، وكنتُ دائماً ما أحاولُ أن أُخفي تلك المعاملةَ أمام والدِهم، الَّذي كان يظنُّ أنَّني أعامل الجميع على أنَّهم سواسيةٌ.

لكن بمجرَّد أن يغيبَ عن المنزلِ تبدأ عاطفتي تتَّجهُ لأولادي، وأركنُ نوحاً بزاوية من الزوايا، لا أهتمُّ به أبداً، وكأنَّه شيءٌ منسيٌّ، قلبي مَن يُحرِّكُني، وعواطفي من تسيِّرُني، لم أشعر ولا لدقيقة بتأنيبِ الضمير اتجاهَه، وكنتُ دائماً ما أقول لنفسي: ربَّيتُه واهتمَمتُ به حتى استطاعَ الاعتمادَ على نفسه، وهذا يكفي.

والدُهم كان بارعاً في معامَلَتِهم معاملةً جيدةً، وبشكلٍ واحدٍ دون التفرقةِ بينهم، فيما كنتُ في صراعٍ مع أُمومتي، ودائماً كانَتْ تتفوَّقُ عليَّ، كبرَ الجميعُ وأصبحوا شباباً، هنا بدأ نوحٌ يعرف جيداً أنني أعاملُه بطريقةٍ مختلفة، وكان يُخفي هذا الأمرَ حتى لا يثيرَ أيَّ مشكلة، وكنتِ وقتَها استغلُّ هذا السكوتَ وأتمادى في التفرقة بينه وبين إخوتِه؛ لأنَّني متأكِّدةٌ أنَّ نوحاً لن يتحدَّث، ودائماً ما أختارُ لأولادي الأفضل، وأحرص على أن يكونا هما المقرَّبان لأبيهم، على عكس نوح الَّذي لم يحظَ منِّي سوى بأقلِّ الأشياء.

ورغم هذا كلِّه إلَّا أن نوحاً كان يحترمُني مثل والدته، ولا يحاول بأيَّة طريقة كانت أن يخبِرَ والدَه، كان نوحٌ راشداً هادئاً، يُسيِّرُ الأمورَ كلَّها بطريقة ذكيَّة، ومن دون أن يُلحِقَ الضررَ بأيِّ أحد.

كنتُ أغتاظُ من طريقته تلك الَّتي دائماً تميِّزُه عن إخوتِه، وهو ما جعلني أتمادى في تصرُّفاتي الحمقاء معه، ففطنَ والدُهم لهذه المعاملة السيئة، لكنَّه اكتشفَ هذا الشيءَ بعد فواتِ الأوان، بعد أن بدأ العجزُ يدبُّ في جسده، ولا أنكر أنَّ نوحاً كان المقرَّب لوالده بشكل كبير، بسبب بِرِّه الَّذي طالما تفاخر

أبوه به أمامي، وغيرُ ذلك فنوحٌ كان ذو شخصيَّة متَّزنةٍ ويتظاهرُ بعدم الاهتمامِ بتصرُّفاتي؛ حِرصاً على راحة أبيه، ودائماً ما ينظر للأمور بشكل أبعد، على العكس مِن أسامةَ وإبراهيمَ اللَّذين أَلْـهَتْهُمُ المظاهرُ وطَيْشُ الشباب عن الأمور العائلية، فأسامةُ كانت هوايتُه شراء السيارات الرياضيَّة، وإبراهيمُ انطوى على نفسه فهو لا يحبُّ الجلساتِ الأُسريَّةَ ويفضِّلُ كثيراً البقاءَ في غرفته، والابتعادَ عن المشاكل، ورغم هذا كان نوحٌ الأخَ المقرَّبَ إليه، على عكس أسامة الَّذي كان يدخلُ معه في الكثير من المشاجرات، وكلُّ هذا كان بسببي؛ لأنِّي أريدُ أن تَدينَ السيطرةُ لأسامة، وكسر شوكة نوحٍ الَّذي بات مقرَّباً من قلب والده وإبراهيمَ بشكل كبير.

وفي كل هذا أنا الملامةُ الوحيدةُ عليه، ومن دون أن أشعر كنت أقرِّب أسامة إليَّ، وأبعد إبراهيم، فشعر الأخيرُ أنه غيرُ مرحَّبٍ به، فتقرَّبَ من نوح كثيراً، والَّذي بدورِه احتضنَه، وراح يسمع كلَّ مشاكله وكلَّ ما يخصُّه، وبدأ الشتاتُ ينتشر في العائلة، وأنَّ السُّمَّ الَّذي كنتُ أعطيه لنوحٍ أصبحَ إبراهيمُ يتجرَّعُه بكل قناعة، للحبِّ خيوط وأساليبُ تجعلُك مسلوبَ الإرادة، وهذا ما حدث لي، كنت أعشقُ أسامةَ إلى حدِّ الجنون، فهو ابني البِكرُ وفرحتي الأُولى، ولا أريد له إلا الأفضلَ، عندما كنتُ أفكِّرُ أنَّه سيتزوَّج، كانتِ الغيرةُ تشتعلُ في قلبي، كنتُ أريدُه لي وحدي.

بعد كلِّ هذه الحوادث والتفكُّكِ الَّذي حصل بأسرتي الصغيرة، علمتُ من أسامة أنَّ نوحاً على علاقة مع ابنة عمِّه ضُحى، وكان الاثنان -بحسب المعلوماتِ الَّتي عرفتُها- يعشقانِ بعضَهما البعضَ بشكل كبير، ومرتبطَين رُوحيَّاً، ولا ينقصُهما إلا الزواجُ، وكلُّ ما ينتظرُه نوحٌ هو أنْ يُكوِّنَ نفسَه، ولا يكلِّف أباهُ أعباءَ زواجِه.

هذا الخبرُ أشعل في داخلي غيرةَ المرأة السلبية، في الماضي كنتُ أختارُ لأولادي الأفضل، بينما نوحٌ أحاولُ تجاهلَه أو إرضاءَه بما هو مقبول، وضُحى بالنسبة لي شيء مميَّز، فهي أذكى وأجملُ بنات العائلة، جامعيَّةٌ ذات بشرة بيضاء، وقوام مميَّز، ووجهٍ ناعم وهادئ، فتاةٌ مهذَّبةٌ مؤدَّبةٌ لَبِقةٌ في الكلام، أحسنَ والداها تربيتَها، كلُّ هذه الصفات المميزة لا بدَّ أن تكون من نصيب ولدي أسامة.

نعم كانت غَيرتي وحسدي هما ما يطغى على تصرفاتي في تلك الفترة، فكنتُ لا أرى بعينيَّ أبداً، أبحثُ عن الأفضل لابني، فطبَّقْتُ الخطةَ الأولى لي عندما بدأتُ أدخلُ على والدهم بطريقة غير مباشرة، وقد هيَّأتُ الأجواءَ لأُفاتحَه بخطبة ضحى لولدنا أسامة، رغم أن زواجَ أسامة سيجعلُني أخسرُه وستأخذُه امرأةٌ أخرى منِّي، لكن هذا لا يهمُّ، لا أريدُ أن يأخذَ نوحٌ هذه الجوهرة الثمينة،

فهي مِن حق ولدي، كنتُ أعتقد أنَّ نوحاَ لن يُبلِغَ والدَه برغبته في الزواج في الوقت الحاليِّ، والفرصةُ لا تزال مواتيةً إلى الآن.

سهرتُ في ذلك اليوم أنتظرُ والدَهم، رغم أنَّني كنتُ أنام مبكِّراً، ليصل في ساعة متأخرة مِن الليل، وقد كانت علاماتُ الاستغراب كلُّها مرسومةً على وجهه ليقول:

- ماذا هناك؟! هل حدثتْ مصيبةٌ؟ أنت لا تستيقظين إلى هذا الوقت، إلا إذا كانت هناك كارثة!

ابتسمتُ بتصنُّع، ثمَّ اقتربتُ منه وقلتُ:

- لِمَ هذه الأفكار السوداء؟! انتظاري لكَ وراءَه كلُّ خير.

استدارَ إليَّ وقال:

- وما هو هذا الخيرُ الَّذي تُريدينني به؟

اعتدلتُ بجلستي وقلتُ:

- أنت تعلمُ أن أسامةَ الآن أصبح شابَّاً، وعلى وشكِ أن يُنهي دراستَه، ما رأيُكَ لو نخطب له ابنةَ عمِّه ضُحى؟

نظرتُ لملامحِ وجهِه الَّتي تغيَّرتْ فجأةً بشكل غيرِ مرضِيٍّ وقال:

- أسامةُ لا يزال صغيراً على الزواج، أوَّلاً يُنهي دراستَه، وبعدها نفكِّرُ جيداً في اختيار عروسٍ له، وأيضاً كلُّ ما أريده أنا الآنَ تزويجُ أخيه الكبير نوح، وبعدها نفكِّر في الباقين.

كانت إجابتُه كالصاعقة الَّتي نزلتْ على رأسي، أعرفُ زوجي جيداً؛ عنيدٌ لا يُغيِّرُ قراراتِه، ثمَّ تركني ورحلَ يُجهِّز نفسَه للنوم.

ليلتها لم تَذُقْ عينايَ طعمَ النوم، كنتُ أفكِّر بأيَّة طريقة من أجل تزويج أسامة من ضحى، ولم أجد أيَّ حلٍّ، وبعد يومَين سمعتُ طرقاتٍ على باب غرفتي.

وعندما سألتُ عن الطارقِ أخبرني أنَّه نوح.

هذه المرةُ الأولى الَّتي يأتي نوح لغرفتي منذ أنْ كان عمرُه 6 سنوات، والآن هو ابن 24 سنة، أذنتُ له بالدخول، وما إن فتحتُ الباب حتى رأيتُ وجهَهُ الهادئ الَّذي اعتدتُ عليه، لكنَّ إحساسي ينبِّئُني أنَّ هذا الهدوءَ هو الَّذي يسبقُ العاصفة، ثم قال:

- منذ أن أدركتُ أنك تعامليننَي بطريقةٍ مختلفة عن أسامة وإبراهيم وأنا مبتعدٌ عنك، ولا أحاولُ أنْ أحتكَّ بك، فضَّلتُ أن لا يبقى بيننا سِوى الاحترام، لأنَّكِ

زوجةُ أبي، وأعتبرُكِ مثل والدتي، لم أتدخَّل أو اعترض على أيِّ تصرُّف تقومين به، على الرغم من أنَّ بعض قراراتِك وتصرُّفاتك كانت تظلمُني، وتسلبُ حقي بهذا البيت، كنتُ ألتزمُ الصمتَ مِن أجل والدي، ولحبِّي لأخوَيَّ اللَّذَين لا أريدُ أن أجعلَهما يشعران أنَّني خصمُك، إلى أن علمتُ أنَّك تريدين أن تأخذي شيئاً احتفظتُ به لنفسي منذ سنين، أخفيتُه عنكم ليشتدَّ عُودي، وأستطيعَ أن آخذَه، وأبتعدَ عن هذا البيت.

"ضحى" يا حسنة! إيَّاك والاقتراب منها؛ لأنَّني سأتعاملُ معك بطريقة مختلفة، سترَين وجهي الثاني.

كانت هذه المرةَ الأولى الَّتي يدعوني فيها باسمي... على غيرِ عادتِه، فهو يُناديني دائماً بـ"أمي"، وعند حديثه عن "ضحى" كانت تعابيرُ وجهِه قد اختلفَت، ولمستْ من عينَيه الغضبَ والتَّحدِّي.

قلتُ له:

- ومَن قال لك أنَّني أريدُ أن آخُذَ ضحى؟

أجابني بغيظٍ يملأ عينَيه:

- والدي يعلم جيداً أنَّني أرغبُ بالزواج مِن ضحى، وليلةَ البارحة قال لي أنَّك تريدينَ أن تخطبيها لأسامة، أترجَّاك لا تُقحِمي إخوتي في هذا الموضوع، لا تُشعرِيهم أنَّني نِدٌّ لهم.

كان وقتَها قلبي يدقُّ بسرعة وقلتُ:

- آها... الآن عرفتُ لماذا والدُكَ رفض فكرةَ خِطبة أسامة، إنه يريدُها لك، يا لَكما من خبيثين أنتَ ووالدُك! تخطِّطان بصمتٍ وبهدوء، من دون أن أعلم.

قاطعَني وقال:

- حسنة هذا شأني الخاصُّ، ليس لكِ أيُّ فضلٍ عليَّ، والدي لا يزال حيَّاً يُرزق، هو الَّذي له الحقُّ أن يتصرَّف أيَّ تصرف، أمَّا أنتِ مجرَّدُ زوجةِ أبٍ.

خرجتْ عيناياَ مِن مَحجَرَيهما بسببِ كلامه الصاعقِ وقلتُ:

- لا أعلمُ أنكَ حقودٌ إلى هذه الدرجة، وكنتَ طوالَ الفترة الماضية تخبِّئُ هذا كلَّه في قلبك، واليوم جاء وقتُ كشف الأقنعة.

نهض من مكانه وقال:

- الآن أنا قد أبلغتُك، إيَّاك والاقتراب من ضُحى؛ لأنني لو علمتُ بأيِّ خُططٍ أو تدابيرَ منك سأُعلنُ الحربَ.

بعدها تركَني ورَحَلَ.

زيارتُه أشعلَتْ نارَ الكره والغضب والغَيرة والتَّحدِّي في داخلي، جعلَتْني أفكِّر ألفَ ألفِ مرَّة، بكيفيَّة تعطيل هذا الزواج، بأيَّة صورةٍ كانت، لم أعلمْ أن هذا الولدَ "نوحاً" سيتحدَّاني في يومٍ ما.

مرَّت الأيامُ سريعةً ونيرانُ الغضبِ تتأجَّجُ في داخلي ولم تخبُ، كيف لي أن أدمِّرَ هذه العلاقة، وأُبطلَ هذا الزواج؟ حتى سمعتُ من إبراهيم ذاتٍ يوم أمراً، وعندما قال لي:

- بعد يومَين سنذهب مع والدي لمنزلِ عمِّي لخطبةِ ضحى لنوحٍ.

شعرتُ أنَّ الخبرَ كان بمثابةِ ماءٍ حارقة صُبَّتْ على رأسي، زادتْ نيران السخط والغِلِّ، وبالفعل تمَّتِ الخِطبة، وتمَّ تحديد يوم عقدِ القِرانِ بعد شهر من تلكَ الزيارة.

كنتُ ذاتَ يوم جالسةً عند بيت أُختي وِداد، لم أكن متماسكةً، والتوترُ والحسرةُ ينهشانِني نهشاً، لاحظتْ شقيقتي ذلكَ وقالت:

- ما بالُكِ طوال الوقتِ شاردةً؟ لستِ على عادتِكِ!

أخذتُ نفساً عميقاً وقلتُ:

- مقهورةٌ يا وداد، ذلك الحقيرُ سيخطفُ ضحى.

بانت على معالِـمِها عدم الفهم وقالت:

- ماذا تقصدِين؟

حكيتُ لها بالضبطِ ما حدثَ منذ أن عرفتُ أنَّ نوحاً ينوي الزواجَ من ضُحى، وقِصَّتِي مع والدِه ومعه، ومخطَّطاتي لإيقافِ هذا الزواج.

بقيَتْ صامتةً تفكِّر معي وقالت:

- لديَّ الحلُّ... إذا كنتِ مستعدَّةً للقيام بأيِّ شيء لمنع هذه العلاقة.

التفتُّ إليها بسعادة وقلتُ:

- هل ما تقولينَه صحيح؟! مستعدَّةٌ لفعل أيِّ شيء.

قالت لي بصوتٍ منخفضٍ وهي تقتربُ مني:

- تعطيل الزواجِ بالسحر.

لم أفكِّر بهذا الأمر بتاتاً، وشعرتُ بالخوفِ من كلمةِ "سحر"، وقلتُ:

- لم أتعامل مع هذه الأمور في السابق!

قالتْ بعد أن قاطعتني:

- هناك ساحرةٌ تقومُ بتلك الأعمال تُدعى "غنيمة"، تسكنُ في منطقة الدسمة، أعرفُ صديقةً لي كانت تعشقُ زميلاً لها في العمل، وكان حبُّها من طرف واحد، ذهبَتْ إلى تلك المرأة الَّتي عمِلَتْ لها حجاباً استطاعتْ مِن خلالِه أن تجعلَه يكرهُ زوجتَه ويطلِّقَها، وقام بعدها بالزواج منها.

شعرتُ بقلقٍ وتوتر عند سماع حديثِها، وواصلتْ كلامَها:

- كلُّ ما علينا زيارتُها، وتنفيذُ أوامرها، مشكلتُها الوحيدة أنها تأخذ على أتعابها مبالغَ كبيرة.

قلتُ لها بشرود:

- لا يهمُّ المبلغ الَّذي ستأخذه، المهمُّ أنها تستطيع إيقافَ هذا الزواج.

قالت لي وداد:

- لم أسمع عنها سوى الأخبار الجميلة، فكلُّ مَن لجأ إليها استطاعَ أن يصلَ إلى مرادِه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

وقفت أمام ذلك المنزل ذي الواجهة الخراسانيةِ البيضاء الضخمة، والشُّرُفات الرخاميَّة البارزة يُخيَّل إليك أنَّ هذا البيت بعشرة عيونٍ شبهِ نائمة، الأسوارُ كانت عاليةً ومَهيبة، تساقطَ عليها ظلالُ الأشجار الشعثاء الباسقة الَّتي توسَّطَتِ الحديقةَ الكبيرةَ من الخلف، الجمالُ الهندسيُّ لهذا البيت الَّذي يقطن في منطقة الدسمة قد سبق عصره، تشعرُ أنك ترى قلعةً قُوطيَّة بلمَساتٍ عصرية جديدة، رائحةُ أشجارِ الياسمين كانت تفوحُ مِن بعيد.

تجاوزْنا البابَ الحديديَّ الأسودَ الخارجيَّ، والَّذي رُسِمَ على صدره غصونُ أشجار متسلِّقة، في نهايتِها أوراقٌ ذهبية، وبعد ذلك ذُهلنا من مشهدِ الأرض الخضراء الَّتي مُلِئت بأنواعٍ كثيرةٍ من الزهور ما بين صفراءَ وحمراءَ وبيضاءَ، كلُّ شيء كان يوحي إليك أنَّ هذا المنزلَ لا تقطُنُه ساحرةٌ تُدعى "غنيمة"، بل من الممكن أن ترى خلفَ جدرانِه أميرةً جميلةً تجلسُ على عرشِها.

جلسنا في صالة البيت، وهناك رائحةٌ تنبعثُ منه، تارةً تشمُّها جميلةً، وتارة أخرى تشعر أنك تستنشقُ رائحةَ أوراق شجر يابس محترق، صراعٌ غريبٌ يحدث في هذا المكان، لم أهتمَّ كثيراً، كان تركيزي كلُّه منصبَّاً على كيفيَّة التعامل مع هذه المرأة الَّتي كانت تعيشُ في هذا البيتِ الجميل من الخارج، لكن داخله هناك الكثير من الهالات والبُقَعِ غير المرئيَّة، الَّتي كانت تلطِّخُ كلَّ مَن يدخل هذا المنزلَ رُوحيَّاً.

لم تمرَّ إلَّا دقائقُ حتى دخلَت علينا تلك المرأةُ البدينةُ سمراءُ البشرة، وهي ترتدي ثوباً طويلاً بلون أسود، رغم صغر عينَيها، إلا أن نظراتِها حادَّةٌ كالسيف، لا تستطيع مواجهتَها خوفاً على عينَيك، وكان خلفَها فتاةٍ في منتصفِ العشرينات، ذات شعر ملوَّن، جسدُها أيضاً ممتلئ، سمراءُ نوعاً ما، تحاولُ في ابتسامتِها الَّتي كانت توزِّعُها علينا، أن تضيفَ نوعاً من الراحة، وعلى الرغم من اتساعِ المكان إلَّا أنه كان ضيِّقاً على الروح.

- تُريدين إبطالَ زواجِ نوح؟

هذا ما قالتْه تلك المرأة السمينةُ لي.

شعرتُ بشيء من الصدمة، كيف عرفَتْ هذه المرأة بما أريده؟!

همستُ لوداد وقلتُ:

- هل تحدَّثتِ معها بما أريدُ قبل وصولِنا؟

قالت لي وداد بتوتر:

- لا طبعاَ، لم أتحدَّث بأيِّ شيء، كلّ ما فعلتُه أنَّني حدَّدتُ موعداَ معها.

قاطعتني غنيمةُ قائلةً:

- لم تبلغْنِي ودادُ بأيِّ شيء، لكنَّنا نعرفُ جيداً مع مَن نتعامل، الأمرُ ليس بتلك الصعوبة، لدينا أعوانٌ يساعدونَنا في كشف المستور.

ابتلعتُ ريقي من الخوف، وعلمتُ أنَّني أتعاملُ مع إنسانةٍ لها قُدُراتٌ خارقةٌ وقلت:

- لا أريدُ لهذا الزواجِ أنْ يتمَّ.

قاطعتْني غنيمة وقالت:

- تريدين أن تكونَ ضحى زوجةً لولدك أسامة؟

هززتُ بالإيجابِ رأسي وقلتُ:

- نعم هذا كلُّ ما أريدُه.

قالت لي بثقة:

- نوحٌ سيتضرَّرُ، حياتُه ستُدمَّرُ، لن يعود كما كان.

صمتُّ قليلاً، فأكملَت غنيمةُ قائلةً:

- الثمنُ غالٍ يا حسنة!

قالت وداد الَّتي نطقَت أخيراً:

- لا تأبهي لشأن المال، كلُّ ما نريدُه منكِ الآنَ أن تُبطلي هذا الزواج.

أحسستُ ببعضٍ من الخوف الَّذي لامسَ قلبي وقلتُ:

- هل سيموتُ نوحٌ؟

قالت غنيمةُ وهي تخترِقُني بتلك النَّظراتِ الحادَّة:

- مات أو عاش، هذه أمورٌ لا تخصُّكِ، كلُّ ما تريدينَه إيقافُ هذا الزواج.

سكتُّ قليلاً، كنتُ أتمنَّى وقتَها لو أنَّني أخرجُ من هذا المنزل، لكن تلك اللَّعينةُ باغتَتني وقالت:

- فاتَ الأوانُ على التراجُع يا حسنة!

قلبي كان يخفقُ، شعرتُ أنَّ جسدي تغطَّى بالماء بسبب تعرُّقي، رغم كُرهي الآن لنوح، لكنَّ مشاعرَ الأمومة والعِشرة قد خرجَتْ فجأةً، فهو أوَّلاً وأخيراً

ولدي الّذي ربَّيتُه، لا أريدُ أن أوذيَه، كل ما أريدُه إيقافُ هذا الزواج بلا أضرار.

قاطعَتْ وصلة تفكيري تلك وقالت:

- لديكم كلبُ حراسة في مزرعتكم القاطنة في منطقة الوفرة، في زيارتِكم القادمةِ أحضروه معكم، مع المبلغِ الَّذي ستبلغُه لكما ابنتي "نادية".

بعدها نهضَتْ بصعوبةٍ بالغة بسبب حجمِها الضخم، وبدأَتْ تسيرُ ناحيةَ المكان الَّذي أتَتْ منه، الوقتُ الَّذي مرَّ كان قصيراً جداً، إلَّا أنَّني شعرتُ أنه دهرٌ قد فاتَ عليَّ.

تقدَّمَت تلك الفتاةُ الَّتي كانت برفقتِها إلينا وقالت:

- السِّرِّيَّةُ هذا كلُّ ما أحتاجُه منكم في الوقت الحاليِّ، المبلغُ الَّذي نريدُه ستجدونَه مكتوباً في هذه الورقة، موعدُكم القادمُ بعد يومَين، مع إحضار ذلك الكلبِ الَّذي تملكونُه.

كنت وقتَها أنظرُ إلى وداد وألعنُها ألفَ مرَّة في داخلي، فهي مَن ورطَتني، وزرعَت تلك الفكرةَ برأسي، قاطعت تفكيري تلك الفتاةُ وقالت:

- لا مجال للتراجع يا حسنة، أيُّ إهمال سينعكسُ عليك وعلى أولادِك، الموكَّلون بالمَهمَّة بدؤوا بالعمل، وعندما يبدؤون لا يتراجعون، أصبحَتْ كلُّ المفاتيح بيدك.

نهضتُ كأنَّني ملسوعةٌ من المكان، وأنا أردِّدُ:

- كلُّ ما تريدينَه ستحصلين عليه.

وسحبتُ ودادَ مِن ملابسها لتنهضَ، المكانُ يكاد يقتلُني، أريدُ أن أشُمَّ الهواءَ الطَّلْقَ.

خرجنا بسرعة وتوجَّهنا ناحيةَ البابِ الخارجيِّ، وقبل أن نصلَ كانت هناك فتاةٌ أخرى تجلس في الحديقة الجمليةِ الَّتي ذكرتُها لك قبل دخولي إلى هنا، شعرُها طويلٌ، هادئة الملامح، كانتْ تنظرُ إليَّ بتمعُّن واستغراب، فيما كان يقفُ أمامَها شابٌّ على ما أعتقد يُماثلُها في العمر، لكنَّهما لا يملكانِ تلك النظراتِ الَّتي كانت بعينَي غنيمةَ وابنتِها نادية.

جلستُ في سيارتي، وأنا أتنفَّسُ بشكل سريعٍ، وقلتُ لوداد:

- بأيَّة ورطةٍ أوقعتِني؟

شعرتُ أنَّ وداد هي الأخرى تحسُّ بالذنبِ وقالت:

- كنتُ أظنُّ أنَّني سأدخلُ لمنزل الساحراتِ التقليديِّ؛ بخور، وبيتٌ متهالكٌ، وغرفة معتمةٌ، لم أكن أعلمُ أنَّني سأتعامل مع هذه المخلوقاتِ الغريبة، هذه المرأةُ لديها طاقة عجيبةٌ تسيطر على كل من يجلسُ بجانبِها

قلت لها بصوت منخفض:

- كيف لي أن أتخلَّص من هذا كلِّه؟

أجابتني وداد بعينَين مذعورتَين وقالت:

- حسنة! التراجعُ ليس من صالحك أبداً، نحن نتعاملُ مع امرأةٍ لديها قدراتٌ تفوق الخيال، ولا بدَّ لنا مِن تنفيذِ كلِّ ما تريد.

هززتُ رأسي بأسىً قائلةً:

- غداً سأبلغُ حارس المزرعةِ لتجهيز ذلك الكلبِ الَّذي طلبَتْه منَّا، كنتُ أتوقَّع منها طلبَ أشياءَ غريبة، وفي آخرِ الأمر لا تطلبُ سوى الكلب، ولا أدري ما الَّذي تريدُه منه، أو ما ستفعلُ به!

انطلقتُ بسيَّارتي عائدةً إلى منزلي وفي رأسي تعجُّ الكثير من الأسئلة، والحيرةُ والتراجعُ يكادانِ يقتلانِني، وأنا أُردِّدُ في داخلي:

- لقد وقعتُ في فخِّ غنيمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

كان الأرقُ ضيفاً ثقيلاً عليَّ تلك الليلة، أفكِّر ما الَّذي سيحصل في الأيام القادمة، الندمُ كان يذوب في كل أركان روحي، كنتُ أريد التراجع وعدم المُضيِّ قُدماً في هذه المهمة مع غنيمة الساحرةِ تلك المرأةِ البدينةِ، والتي منذُ أن تخطوَ خطواتِكَ الأولى داخل بيتها، يعني أنك قد بدأتَ المهمةَ.

أبلغتُ حارس المزرعة بسرعة ليُحضِرَ الكلبَ، كنتُ كتومةً جداً، ولا أريد أن أبلغَ أيَّ شخص عن مخطَّطاتي تلك، وكنتُ على يقين أن المزرعةَ أصبحت مهملةً من الجميع ولا يزورونَها إلا في المناسبات الكبيرة، واختفاءُ الكلب لا يُلفتُ انتباهَ أحد.

يومانِ مرَّا عليَّ كأنهما الدهر كلُّه، كنت مشتَّتةَ البال والفِكر، تمنيت لو أنَّ اليومَينِ الماضِيَينِ كانا مجرَّدَ كابوس مظلِم، وللأسف كانا واقعاً حقيقياً أعيشُه بعُمق، وفي نفس الموعد ذهبنا إلى منزل غنيمة، ومعنا ذلك الكلبُ الَّذي كان صغيراً بكلِّ أسف، طرقَتْ وداد باب البيت، وبعد وقت ليس بطويلٍ خرجَ لنا ذلك الشابُّ الَّذي كنتُ رأيتُه أوَّلَ مرة وهو يقف مع فتاةٍ تماثلُه في العمر في المرة السابقة، لم يتكلَّم بأيَّة كلمة، فقط أخذ منَّا الكلبَ وبعدَها أغلقَ البابَ.

وقتها كنتُ أنظرُ لوجهِ وداد الَّتي كانت تحمل نفسَ التعابير الَّتي على وجهي، وبعدَها قالت:

- دعينا نرحل! الأمرُ وصلَ إلى ألغاز غير مفهومة.

مضيتُ إلى بيتي وطوال الطريق لم أتكلَّم بأيَّة كلمة، فقط كنتُ شاردةً أفكِّرُ ما الَّذي ستحملُه الأيام القادمة، وهناك هاجسٌ يدور في رأسي هل ستنجحُ غنيمة بإيقاف ذلك الزواج الَّذي سيتمُّ بعد أسبوعَين من الآن؟

أعلم أنَّني أعيش في حالة من التناقض، رغبة في التراجع، ورغبة كبيرة في إفشالِ خطبة نوح وضحى، أمران في رأسي يتصارعان، كضارِيَينِ كلٌّ واحد منهما يريدُ افتراسَ الآخر.

منذ ذهابي إلى بيت غنيمة والأحداثُ باتَتْ تتسارع، وجاء ذلك اليوم، وبالتحديد بعد ثلاث ليالٍ من تسليمِنا الكلبَ الصغير لتلك المرأة البدينة، عندما أتاني العاملُ إلى منزلي ليخبرَني، أنَّ هناك رجلاً قام بإحضارِ هذا الكلب إلى المنزل، ابتسمتُ بوجهِهِ محاولةً إخفاء ارتباكي، رأيتُ الكلبَ وهو بعين واحدةٍ، بينما عينُه الأخرى قد طُمِسَتْ تماماً، المسكينُ لا يعلمُ ما الَّذي أقحَمَه في تلك المسألة الدنيئة، كان فرحاً عندما اشتمَّ رائحتي، وفي نفس الوقت كان يتألَّم من عينِه تلك الَّتي أصبحَتْ كأنَّها جِلدة، قلتُ للعامل:

- الطبيبُ البيطريُّ أجرى عمليَّةً سريعةً لهذا الكلب المسكين.

استفسر العامل وهو يقول:

- ما الَّذي كان يُعاني منه ليصلَ لهذا الحال؟

أجبتُه بارتباك واضح:

- إن عاملَ المزرعة أخبرَنا أنَّ هذا الكلبَ يُعاني من شيء بعينه، وقمتُ بإرساله للبيطريِّ الَّذي عالجَه بهذه الطريقة.

ابتسمتُ وواصلتُ حديثي:

- الحمد الله، المهمُّ أنَّه بحال أفضلَ الآن.

كنت متوتِّرةً جداً، بعدها رحلت بسرعة وبيدي الكلب الَّذي باتَ وجهُهُ مرعباً بعد قَلْعِ عينِه، شرعتُ بالاتصال بوداد أخبرَها بالذي استجدَّ.

وبالكاد أغلقتُ الهاتفَ منها فرنَّ مرةً أخرى، فسمعتُ ذلك الصوتَ الثقيل وهو يقول:

- السرُّ في العيون، إياكِ أن تفتحيها!!

عرفتُ هنا أن المتصلةَ هي غنيمة وقلتُ:

- ماذا تقصدين؟ لقد تفاجأتُ بعين الكلب المفقوءة، ما الَّذي حصل؟

ردَّت بهدوء كامل:

- لا تسألي كثيراً، ستحصلِين على كلِّ ما تريدين، والقضاءُ على ذلك الزواج الَّذي أثقلَ حالك باتَ وشيكاً.

قلتُ لها بلهفة:

- هل أنتِ متأكِّدة أن الزواجَ لن يتمَّ؟!

أجابتني بنفس الطريقة:

- كوني على ثقة، ما دمتُ أتنفَّسُ فلن يتمَّ هذا الزواج.

ارتسمَتِ ابتسامةٌ على وجهي، وبنفس الوقت كان قلبي يضرب بضراوة.

واستطردَتْ قائلةً:

- كلُّ ما عليك الآنَ هو إرسالُ ذلك الكلبِ إلى المزرعة، والمحافظة عليه بقدرِ المستطاع، وإياكِ والاقتراب من عينه المصابة، لو اقتربتِ منها سينعكسُ كلُّ

ما عملناه عليكِ، حافظي على هذا الكلب الّذي سيكونُ تعويذتَك في الأيام المقبلة، وإياك والتفريط به.

واصلَتْ حديثَها قائلةً:

- يوجد لك كيسٌ صغيرٌ من البخور، تعالَي مساءَ الغد إلى مسكني واطلبيه مِن عاملتي المنزلية، أشعلِيه في ليلة عقد القِران، على أن يكون كلٌّ مِن نوح وضحى في المكان، وبشرط أن يستنشقاهُ، يجب أن ينتشرَ دخانُ البخور بشكل كثيفٍ في المكانِ ولدقائقَ، وبعدها ستريَن ما يسرُّكِ.

أغلقتُ الهاتف، وبعد دقائق دخلت وداد تريدُ أن تفهمَ مني ما حصل، وعندما رأت الكلب، تراجعَت إلى الوراء وقالت:

- ما الَّذي فعلَتْه تلك المجنونةُ بهذا المسكين؟!

طلبتُ منها السكوت، وشرحتُ لها كلَّ ما حدث بالضبط، وأنَّ الأيامَ المقبلة حُبلى بالعديد من المفاجآت، وكل ما علينا الآن إرسالُ هذا الكلب إلى المزرعة، وعلى ما أعتقدُ أنَّ العَمَلَ مَزروعٌ بعينه، والوصولُ لها يعني إنَّنا سندمِّرُ كلَّ شيء.

نظرت إليَّ وداد بدهشة وقالت:

- هذا آخرُ ما كنت أتوقَّعُه أن يُدفَنَ العملُ في جسد كائن حيٍّ!

قلتُ لها بعد شعوري بشتاتِ روحي الَّتي أريدُ لَـمْلَمَتَها بتلك السريرةِ غير المنطقيَّة لأُقنع نفسي بالذي يجري:

- إننا نتعاملُ مع امرأة قُدراتُها تفوقُ الخيال، وبمعنىً أدقّ لقد تورَّطنا، ووقعنا في الفخِّ كما قلتُ لك، ولا مجالَ للتراجع.

أخذتُ تنهيدةً عميقةً وواصلتُ حديثي:

- ما علينا الآن سِوى إرسالِ هذا الكلب إلى المزرعة، ونختلق قصَّةَ أنه كان يُعاني من عينِه، وأرسلناه إلى البيطريِّ الَّذي قام بعلاجه بهذه الطريقة، وننتظرُ نتائجَ أفعالنا تلك، ونرى ما الَّذي سيوقِف ذلك الزواج؛ إذ كلُّ المؤشِّرات تؤكِّد أنه قائمٌ لا مَحالةَ، فجميعُ الأطراف متَّفقة.

قاطعتْني وداد وقالت:

- هل أنتِ خائفة يا أختي؟

أجبتُها وقلتُ:

- لا أنكر أنَّني خائفةٌ، فنوحٌ يبقى ولدي، ولا أريدُ أن أوذِيَه، وبنفس الوقت سعيدة، كلُّ ما أريدُه إيقاف الزواج.

قاطعتني مرةً أخرى وقالت:

- تعتقدِين أنَّ الأمرَ سيكون أكبرَ من إيقاف الزواج؟

قلتُ لها محاوِلةً إخفاءَ مَخاوفي:

- أتمنَّى أن لا يتعدَّى الأمرُ هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

الشمسُ مائلةٌ للغروب، وهديرُ الموجِ يحتضنُ الشاطئ من بعيد، قليلٌ من الناس يتحرَّكون هنا وهناك، والنسائمُ الدافئةُ تغمرُ المكانَ.

يجلس نوحٌ في أحد المطاعمِ المطلَّةِ على البحر، وبجانبِه تجلسُ ضحى، وعيناها تلمعان من السعادة، كلُّ شيء سار كما خططا له، ولم يتبقَّ إلَّا أيامٌ قليلة وستصبحُ حَليلتَه.

- لم أتوقَّع أن تتقدَّمَ الأمورُ بهذه السهولة.

قالتها ضحى وهي تنظر إلى الشاطئ.

تنهَّدَ نوح بعد أن أمسكَ بيدِها بحنان وقال:

- حبيبتي لا أُخفيكِ بأنَّ قلبي قد انفطر خوفاً وجَزَعاً عندما أدركتُ أن حسنة طلبَت من والدي خِطبَتَكِ لأخي أسامة، لم يُغمَضْ لي جفنٌ حينها ولو لوهلة، رغمَ أنَّ أبي قد أعربَ لي عن دعمِه لنا، وأنه سيُعينُنا، تخيَّلتُ كيف سيكون عالَمي مِن دونك، شعورٌ يعصرُ القلبَ حتى يُدمِيه.

قالت ضحى بعد أن ارتسمَتْ على شفتَيها ابتسامةٌ عذبةٌ:

- نعم كانت فترةً صعبةً جدَّاً، رغم إحساسي أنَّ الأمورَ ستمضي لصالِحنا، وأنَّني في آخر الأمر سأكون لك، صدِّقْني أن زوجةَ أبيك لا تملكُ القدرةَ على تفريقنا، أنا واثقة من هذا الأمر، فجذورُ حبِّنا متينةٌ، ولا تستطيعُ رياحُها الضعيفةُ تحريكَ غصن واحد من شجرة عشقنا.

ضمَّ نوحٌ يدَها نحو قلبِه وقال:

- أموت مِن فِراقِكِ وليس لحبِّي حدودٌ، أتدرين؟ لقد بكيتُ ليلتَها راجياً ربي أن يجعلَكِ من نصيبي، أو يُنهيَ وجودي، كنت أحسب الأيام والليالي لتتويج قصَّةِ حبِّنا بنهاية تكون هي البدايةَ لحياة سعيدة أبديَّة، لك كل الحقِّ باتِّهامي بالجنون، لكنَّكِ لا تعرفين زوجةَ أبي فهي خبيثة، كانت دائماً ما تفرِّقُ بيني وبين إخوتي، وإنْ أصرَّت على شيء سيكون مهما كان الثمن.

ردَّتْ ضحى بعد أن وضعتْ رأسَها على كتفه:

- هوِّن عليكَ يا حبيبي، واطرد تلك الوساوسَ المَرَيضةَ من رأسك، فكل الأمور في صالحنا، ولم يتبقَّ سوى أيام قليلةٍ على زواجنا، كلُّ ما أريدُه منك الآن الهدوء والتفاؤل بما هو قادم، إحساسي يقول لي: إنَّ الأيامَ المقبلة ستكون سعيدةً، بعد فترة صبرنا الطويلة، وتأكَّد أنَّني لن أتخلَّى عنك أبداً مهما حدث.

...

نظر إليها بكل حبٍّ وقال:

- لا تعلمين ما تفعلُ بي نظراتُك، فوقعُها كالسحر على روحي، ونبرةُ صوتك كأنغام منتشية تتراقصُ مع دقَّات قلبي، فلا تلوميني للحظةٍ لو فكَّرتُ بتلك الأشياء المتعِبة، فأنتِ بالنسبة لي درَّةٌ نادرةٌ وثمينةٌ، ولو خسرتُها سأخسرُ كلَّ شيء.

بادلَتْه النظراتِ وقالت:

- لا تخفْ يا حبيبي كلُّ شيء سيكونُ على ما يُرام، التوترُ والتفكيرُ الزائد هما ما يجعلانِكَ تنظر إلى الأمور بتلك السلبية.

نظر نوح للبحر وقال بكل أسىً:

- لقد عانيتُ الكثير من حسنة، كانت تتفنَّنُ بحياكة المشاكلِ وخَلْقِ العراقيل أمامي، حسنة كانت تحسدُني على أيِّ شيء، ولا تتمنَّى لي الخير، فكلُّ تصرفاتِها وأفعالِها تدلُّ على ذلك، كنتُ أصمتُ كثيراً احتراماً لوالدي، وخوفاً من صنع عَداءٍ مع أخوتي، كيدُها وغرورُها جعلاها تظنُّ أنَّ والدي لم يفهم أفعالَها، وهو الشخصُ الوحيد الَّذي مدَّني بالقوة وعوَّضني عن تلك الفترة، وجلُّ أمنياتي أن أبتعدَ عنها.

وها هي الآن تحاولُ سرقةَ جوهرتي الثمينة الَّتي لم أحظَ بالسعادةِ إلا بقربِها.

كانت ضحى تسمعُ باهتمام وقالت:

- لا أعلمُ لماذا تتصرَّف معك بكل هذا الحقد، رغم أنها هي من ربَّتكَ!

أجابها:

- للتنويه... هي من اعتنَت بي فقط، قبل أن تُصبح أمَّاً، لكني لم أجد أيَّ مبِّررٍ لكُرهِها هذا، ومع ذلك كنت ممنوناً لرعايتِها لي، لقد استطاعتْ أن تغسلَ عقلَ أسامة، الَّذي بات يُشبهُها في تصرُّفاتها ونرجسيَّتها، إنه يعتبرُني نِدَّاً، ويحاول افتعالَ المشاكل معي على أيِّ شيء.

تنفَّسَ بعمق وأكمل:

الحسنةُ الوحيدة في هذا البيت هو إبراهيمُ الَّذي كان يختلف عنهما كثيراً، لم يكترث لكلِّ محاولات والدته، ولا يزال يعاملُني بكل احترام.

شرد لبرهة ثمَّ واصل حديثَه:

- دعكِ من هذا كلِّه، أخبريني بالضبط، هل ينقصُك شيء؟ كلُّ الأمور لحفلِ عقد القِران جاهزةٌ بالنسبة لي، تعلمين نحن الرجالُ تجهيزاتُنا بسيطة، على

عكسكم أنتم النساء، فلديكُم ترتيباتٌ معقَّدةٌ.

ضحكَت ضحى وقالت:

- لو الأمر بيدي لما قمتُ بهذا كلِّه، كل ما أتمناه أن أصبحَ معك، ولكن العادات والتقاليدَ والأعراف هي ما يُجبرُنا على فعل هذه المراسيم، الكل يريدُني أن أكونَ الأكثر أناقةً وجمالاً من كل من في الحفل.

راح الاثنان يضحكان ويتحدَّثان، مستكملَين حديثَهما عن الزفاف بحبٍّ، منتظرَين بكل لهفة تلك الليلة، الّتي بعدها ستتغيَّرُ حياتُهما كاملةً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

كان جميع من في الغرفة يستمعُ بذهول لِمَا تقولُه حسنة، الأمر كان يفوق كل التوقعات إلا من شخص واحد، كان يستمعُ وينظر إلى الأرض، وعلاماتُ الخزي ظاهرةٌ على تفاصيله، أسامةُ الَّذي تمنَّى لو أن والدتَه لم تتحدث.

قال لها عدنان:

- أين كان عقلُك طوال هذه الفترة؟

همس مهاب وقال:

دعها تكمل... بدأتُ مع أعواني نمسكُ ببعض الخيوط الَّتي ستقودُنا إلى الحقيقة.

أخذَتْ كوبَ الماء الَّذي كان بجانبِها ودموعُها تسيل على خدَّيها، بسبب حديثِها المؤذي لها، فالندم كان يتصبَّب منها كشلالِ حِمَمٍ يصهرُ روحَها، وارتشفتْ منه رشفةً وأكملَت كلامَها قائلةً:

- كنتُ أعلم أن علاقةَ الحبِّ الَّتي تجمعُ ضحى ونوحاً عميقةٌ، والاثنان يعشقان بعضهما البعض إلى حدِّ الجنون، ولم أكنْ أتصوَّرُ ولو لدقيقة أنَّني سأفلحُ وأدمِّرُها،

وصلنا إلى اليوم الموعود، ليلة الزفاف تلك، الجميعُ كان فرحاً، لأنَّ نوحاً كان شخصاً محبوباً، رقصَتِ الأنوارُ على أسوار منزل بيت ضحى، وكنتُ وقتَها أتصنَّع الفرحة أمامَهم، وفي داخلي ألفُ ألفِ هاجسٍ ووسواس، وكما قلتُ لكم الوحشانِ اللَّذان في داخلي لا يزالان يتصراعان، أتمنَّى أن يخيبَ مفعول عمل غنيمة، وبنفس الوقتِ أتمنَّى أن أرى نتائجَه على هذا الحفل الكبير.

أتذكَّر ذلك اليوم عندما دخلتُ إلى المنزل أسلِّم على هذا وأرحِّب بذاك، والجميعُ يبارك لي، فالكلُّ يعتبر نوحاً ولدي الَّذي لم أحمله في بطني، لكنِّي ربَّيتُه، جدرانُ بيتِنا كانت تُخفي تلك الكراهيَّةَ الَّتي أبطنُها له، أصواتُ الأغاني تتعالى، والجميعُ يتزيَّنُ بأفخم الملابس.

نوح سيتزوَّجُ ضحى، الجميع يتمنَّى لهما الخيرَ، إلا أنا، ولا أخفيكم أن أسامة قد انصاعَ لأوامر والده ولم يهتمَّ كثيراً لأنَّ أباه فضَّل نوحاً عليه، فهو أوَّلاً وأخيراً لا يملك رأياً بعد كلمة أبيه، أمَّا أنا فنيران الحقدِ والحسدِ والغِلِّ تتأجَّجُ في داخلي، وبهذه اللحظة حضرَتْ ودادُ الَّتي ساعدَتْني في هذا كلِّه.

- يبدو أن عملَ غنيمة كلامٌ فارغ.

قالتها لي بهمس، لا تريد أن يلاحظَها أحد.

أجبتُها بتوتر:

- على ما أعتقد أنَّ كلامك صحيح، الأمورُ تسير بسلاسة تامَّة، ولا يوجد ما يعكِّر صفو هذا الحفل.

قالت وداد بعد أن جلست:

ننتظر وصولَ الرجال من منزلكم بعد عقد القِران وتبدأ الحفلة، ثمَّ طبِّقي ما قالتْه لك غنيمة، وأشعلي ذلك البخور، وسنرى ما سيحدث.

مددتُ يدي ناحيةَ جيبي أتفحَّصُ الكيس الصغير الَّذي أضعُ في داخله قطع البخور وقلت:

- أشعرُ بالتوتر، لستُ متمرِّسة بمثل هذه الأمور، أخاف أن يكتشفَ أحدُهم ما سنفعلُه.

قالت وداد:

- لا تخافي كثيراً، لن ينتبه أيُّ أحد، كل مَن في الحفل سيكونون منشغلين بالعروسَين.

لم أكن أتوقع أن أقوم بكلِّ هذه الأفعال بهذه السهولة، ومن دون أن يؤلمَني ضميري ولو لحظة واحدة، كانت ضحى جالسةً "بالكوشة" وهي بكامل زينتِها، وفوقَ جمالها ازدادَت جمالاً، تجلسُ بهدوء وخجل، والموسيقى والأغاني تضجُّ مِن حولها، والجميعُ مبتهجٌ ويرقصُ وينتظرُ قدومَ نوح، ليكتملَ نِصابُ الفرح، خاصةً أنَّنا علمنا أنَّ الزواجَ قد تمَّ.

كنت متحفِّزة رغمَ القلق الَّذي كان يهزُّ كياني من الداخل، وقتَها لم أكن أفكِّرُ بأيِّ شيء سِوى بانتهازِ الفرصةِ لتنفيذِ المهمة، وإشعالِ ذلك البخور الَّذي أعطَتْني إيَّاه غنيمةُ فورَ وصولِهم.

دخل نوح، وهو أيضاً بكاملِ هندامِه، بجانبه والدُه وأخواه إلى صالة المنزل، والجميع يزغرد ويصفِّق فرحِين بهذه المناسبة، كنتُ أتظاهرُ بالسعادة والفرح، اقتربتُ منهم وبيدي المبخرة الَّتي وضعتُ داخلَها بعضاً من قطع البخور المسحور، وما هي إلَّا ثوانٍ وراحتْ رائحتُه تنتشرُ، ودخانُه يعلو في المكان، لم يلاحظْ أحدٌ أيَّ شيء ممَّا حصل، فالبخورُ دارجٌ في مثل هذه المناسبات، كان الاثنان كمَلِكٍ ومَلِكَةٍ وهما يجلسان على عرشَيهما، والابتسامةُ لم تفارقْ مُحيَّاهما.

جلست على أحدِ الكراسي بجانب وداد أنتظر النتائجَ الَّتي ستحصل، فدخانُ البخور كان كثيفاً جداً وجلياً، الآن سيقوم نوح بإلباس ضحى خاتمَ الزواج، وبعضاً من المجوهرات، تقدَّمَت أختُ ضحى بتقديم علبة الخاتم، مدَّ نوحٌ يده

ناحيتَه وما إن رفع رأسَه لتتغيَّر ملامحُه فجأة، الابتسامةُ اختفَت، وارتسمَ مكانها ملامحُ الذهول والريبة على وجهه، وهو ينظر لوجه ضحى، كأنَّه يرى شيئاً مختلفاً، لم يتحدَّث بأيَّة كلمة، بل كان ينظرُ باشمئزازٍ وهو غيرُ مصدِّق.

كنتُ أنظر إلى وجهه وأنا أعرف لحظتَها أن مفعول البخور قد بدأ، وضعتُ يدي على يد وداد وقلتُ:

- يبدو أن العملَ قد بدأ مفعولُه.

قالت وداد مستفسرةً:

- كيف عرفتِ ذلك؟

أجبتُها وعينايَ لم تفارق وجهَ نوح:

- انظري إلى ملامحِ وجهِه الَّتي تغيَّرَتْ.

هنا انتبهتُ لوجه ضحى، الَّذي هو الآخر قد تغيَّر، نفس التفاصيل الَّتي حلَّت على وجه زوجها بانت على وجهها، علاماتُ الاستفهام والصدمةِ واضحةٌ في عينها، وكأنها تقول من ذا الَّذي يجلس بجانبي ويمسكُ بيدي، وما هي إلا ثوانٍ لتسحبَ ضحى يدَها من يدِ نوح برَوْعٍ، وتراجعت إلى الوراء وسط دهشة الجميع، وهي تقول:

- مَن هذا الكائن الَّذي يحاول إلباسي الخاتم؟

بدت معالِمُ الذهولِ على أمِّ ضحى وأخواتِها، وهم يردِّدون: "هذا نوحٌ!"، الصدمة الأخرى هنا أنَّ نوحاً هو الآخرُ نهض من مكانه وهو يقول:

- مَن هذه البشعة الَّتي تريدون منِّي الزواجَ بها؟ إنها ليست ضحى، أرجوكم أين ضحى؟ أين اختَفَت؟ هذا ليس وقت المزاح!

وهو يضعُ يده على رأسه كأنه يشعر بدُوارٍ كبير.

الأمر كان يزداد سوءاً، والجميع يؤكِّد لنوح وضحى أنهما موجودان، رغم أن الاثنين لا يَريانِ بعضَهما البعض، ويرون أشخاصاً على غير هُويَّتِهم، نهضت ضحى وتراجَعَتْ بعض الخطواتِ إلى الوراء وهي تردِّد:

- لن أتزوجَ هذا المخلوقَ القبيح، أين نوح؟ أين هو؟

وهي تلتفتُ يميناً وشمالاً.

وأردفَتْ كلامَها:

- هل هذه حِيلةٌ من حِيلكم من أجل تزويجي بشخص آخر؟!

بعدها تحركت بسرعة وانطلقتْ راكضةً مبتعدةً عن المكان، ذاهبةً إلى غرفتِها، لحقتْها أحدُ أخواتها، وما إن دخلت شقيقتُها الحجرةَ حتَّى وجدت ضحى ملقاةً على الأرض، وهي فاقدة للوعي.

وما حدث في الحفل كان أشبهَ بالهَرْجِ والمَرْجِ، الجميعُ بدأ يردد تلك الجملة:

"عينٌ ما صلَّتْ على النبيِّ ".

ونوحٌ يضع يده على رأسه، ويصرخُ مردِّداً:

- صداعٌ يفتكُ برأسي، أبعدوا هذه البُومةَ عن وجهي!

تدخَّلَ هنا إبراهيمُ وقال لنوح:

- ما الَّذي تقولُه يا أخي! إنها ضحى ابنةُ عمِّنا وزوجتُك! ما الَّذي حلَّ بك؟!

دفَعَه بكل قوة وقال:

- لم تكن ضحى! إنَّ مَن كانت تجلس بجانبي امرأةٌ دميمةُ الشكلِ ورائحتُها كريهة، أنتم تكذبون عليَّ، إنِّي أرها كطائر بومٍ ينظرُ إليَّ بكل وقاحة.

حاول هنا إبراهيم تهدأة الموقف، وتحسينَ الأوضاع، لكن كلُّ شيء قد انقلبَ على رؤوس الجميع، ورانَ الصمتُ على المكان، نهض نوحٌ وهو ممسكٌ بيدِ إبراهيم، وقام بإخراجِه من الصالة والتوجُّهِ به إلى البيت.

وقتَها كنتُ فرحةً جداً، مفعولُ السحر الَّذي قامت به غنيمة قد بدأ، إنها فعلاً إنسانةٌ تعرف جيِّداً كيف تقوم بعملها، كنت حينها أتظاهرُ بالصدمة كما هي حال الحاضرين؛ كي لا يشكَّ بي أيُّ أحد، بينما ودادُ كانت مذهولةً بصدق، ولم تفهم ما الَّذي حصل وكيف حدث كلُّ ذلك.

وبعد ربع ساعة قامت أم ضحى بالاعتذار من الحاضرين على الَّذي جرى، وطلبت منهم أن يذهبوا لغرفة العشاء، بينما أنا كنتُ أحاول أن أساعدَهم بتلك المصيبة الَّتي حطَّت على رؤوسهم، وأبيِّنَ للجميع حُزني حتى إنني طلبت من إبراهيم أن يأخذ أخاه بعيداً ويقرأ عليه بعض الآيات القرآنية، وأوضِّحُ له أنَّ هناك عيناً حاسدةً هي من قامت بكل هذا بسبب جمال الاثنين وهم جالسان على منصَّة الزواج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

21

غرفةُ ضحى مكتظَّة الآن، تجلس بجانبها والدتها، والحسرة تملأ وجدانَها، بينما هي شاردة الذهن تنظر إلى السقف بخَدَرٍ، بعد أن أفاقت من إغمائِها، وهي تردِّدُ

- ما الَّذي حدث بالضبط؟! لماذا الجميع هنا؟!

ارتسمَت حالةٌ من الوجومِ التامِّ على وجوه الموجودين، وبعدها أكملَتْ:

- أليس من المفترضِ أن اليوم هو يوم زواجي؟

أدارتْ رأسَها إلى وجوهِهم وأكملَتْ:

- مالكم تنظرون إليَّ بهذه الطريقة؟ هل حصل مكروه لنوح؟

الجميع لا يعلم ما الَّذي يحدث بالضبط؟ ولماذا وقع كل هذا؟ كنتُ أُراقبُها؛ أنتظرُ أن تتحدَّثَ وتقول ما بداخِلِها، لحظاتٌ كانت طويلةً بصمتِها، وقصيرةً بسرعة أحداثِها، لتدركَ بعدها أنها كانت بحالة هستيريَّة قبل قليل، وتكملُ:

- لم يكن نوحاً، كنتُ أرى وحشاً بوجهٍ أسود، وعينَين حمراوَين بارزة، ظننتُ في البداية أني كنتُ أتوهَّم، إلَّا أنني تأكَّدتُ أنَّ ما أراه حقيقيٌّ، وجهُه متقلِّبُ الملامح، وكانت رائحتُه نتنةً.

استغربَ الجميع من حديثِها هذا غيرَ متوقِّعين لِما قالت، لتقاطعَها والدتُها وتقول:

- الذي كان بجانبكِ هو نوحٌ نفسه، الجميع كان يراه، لماذا تصفينَه بهذه الطريقة؟

التفتَتْ ضحى إلى والدتها واغرَورَقَتْ عيناها بالدموع، وقالت بصوت مرتجف:

- صدقيني يا أمي لم يكن نوحاً، كان شيئاً مختلفاً، شخصاً لا أعرفُه.

وبعدها انهارَت في موجة من البكاء.

تدخَّلتْ امرأةٌ من الحاضراتِ وقالت:

- إن ما حدثَ غريب، وليس له تفسير إلَّا أنَّ هناك عيناً حاسدةً لم تصلِّ على النبي، أو هناك أمر حدثَ بخفاءٍ وقَلَبَ كلَّ هذه الأمور.

قاطعَتْها أختُ ضحى وقالت:

- ليس لدينا أيُّ أعداء ليضمِروا لنا كلّ هذا الشرِّ ويفسدوا فرحتنا بهذه الطريقة، على ما أعتقد أنها عينٌ حاسدةٌ فعلاً.

كنتُ وقتَها أنظر إلى تلك المرأة بغِلٍّ، وتمنَّيتُ لو أنَّني قطعتُ لسانها قبل أن تتفوَّه بتلك الكلمات، وتبتعدَ عن هذا المكان كي لا تثيرَ الشُّبهات، وتفتحَ الأبوابَ على مصراعيها، لا أنكر أنَّني كنت خائفةً جدَّاً، ومتماسكةُ في الوقت عينِه.

خرجت من منزل ضحى، وتوجَّهنا إلى البيت، أريد معرفةَ ما هي الأحداث الَّتي حصلت لنوح، وعندما كنتُ في الطريق رنَّ الهاتف، كانت المتصلة غنيمة:

- أعتقدُ أنَّ الأمور سارت على ما تريدين، والأجواء أصبحت متوترةً، والحفل فسد بالكامل.

أجبتُها ويداي ترتعشانِ عندما كنت أمسكُ الهاتفَ:

- بالفعل حصل كل ما قلتِه، والحفلةُ انقلبت على أصحابها.

قاطعتني وقالت:

- ستزدادُ الأمور سوءاً أكثرَ من ذلك، الأيامُ القادمة ترقَّبي ما سيحدث، سترَين العَجَبَ العُجَابَ يا حسنة، كلُّ ما أريدُه منك الآن الصمتُ وعدم الحديث.

شعرتُ بقبضة في صدري وقلتُ:

- هل سيتأذَّى نوحُ؟ هل سيصيبُه مكروهٌ غير الَّذي حصل؟

ردَّت بكلِّ وقاحة وقالت:

- أنت من وضعَ نوحاً داخل هذه الدائرة، وعليك تحمُّلُ النتائج مهما كانت، هذا العالَم الَّذي دخلتِ فيه لا يؤمنُ بالضمير والمحاسبة، ارمي كلَّ شيء وراءَ ظهرك وأكملي مسيرتَك، القادمُ سيكون مذهلاً، كل شيء سيكون بجانبك.

بعدها أغلقَت الهاتف، العذابُ الَّذي في داخلي يزداد رغم سعادتي بما حصل، وفور وصولي إلى لمنزل، التقيتُ نوحاً وأبوه عندَه، يحاول تهدئته وقراءةَ بعض الآيات القرآنية عليه، بينما أسامةُ وإبراهيمُ كانا يجلسان معهما، أعلم أن الأجواء كانت متوترةً كثيراً، جملةٌ واحدةٌ قلتُها وبعدها مضيتُ إلى حجرتي:

- عينٌ ما صلَّتْ على النبيِّ يا نوح، إن شاء اللهُ الأمورُ ستحلُّ.

رفع رأسَه ناحيتي وكان ينظرُ إليَّ بحدَّة كبيرة، ارتجفَتْ بسببِها جميعُ أعضائي من الداخل، وبعدها تركتُه ورحلتُ.

وفي المساء، عرفتُ من أسامة، أن نوحاً عندما جلس بجانب ضحى، شعر أن هناكَ شيئاً غريباً يضغط على صدره يأمرُه بمغادرة المكان، لكنَّه تماسكَ وطردَ تلك الوساوس، وعندما رفعَ رأسَه، تفاجأ أنَّ ما يراه لم تكن ضحى، بل كانت امرأةً بملامحَ بشعة جداً، وعينين مرعبتين، ووجه مشوَّه، وأسنانٍ بارزةٍ، وأنه لم يكن يذكر ما قاله بالضبط داخلَ الحفلة، وكيف ترك المكان ورحل، وبمجرد خروجِه شعر براحة شديدة، بعدما كان يحسُّ أن هناك من يُلحُّ عليه بالرحيل.

كان أبو نوح حزيناً على مصابِه بابنِه، وهذا ما لسمتُه منه عندما كان معي في الغرفة، وشعرتُ أن موضوعَ نوحٍ قد أثَّر فيه وأثقلَ كاهلَه، وطبعاً كنتُ أحاول بكل ما أُوتيت من قوة أن أواسيَه وأطمئنَه أن الأمور ستعود كما كانت، وكل ما حدث مجرد حسدٍ، من الممكن أن يزولَ من خلال الرُّقية الشرعيَّة، لكن كنتُ غير مدركةٍ أنَّ نتائجَ ما فعلتُ ستكون تَبِعاتُها سيِّئةً على العائلة بالأكمل، أنا من أدخلَ كلَّ هذه المخلوقات الغريبة إلى منزلي، أنا من فتحتُ بوَّاباتِ الشرِّ تلك، وها هي النتائجُ تنصبُّ على رأسي الآن.

الأيام كانت تسير بطيئةً، القلقُ والتوترُ كانا يمزِّقانِني من الداخل، كما قالت غنيمة الأيامُ الَّتي تبعتْها كانت أياماً مرعبةً، حصلت فيها أمورٌ لم أتوقَّعها أبداً، ولم أتخيَّلها ولا في الأحلام.

تمنَّيت لو أنَّ لديَّ القدرةَ على إيقاف كل هذا السيلِ الجارفِ الَّذي اكتسحَ العائلة، من خلالِ الاتصالِ بغنيمةَ وطَلَبِ إيقافِ كلِّ شيء، إلَّا أنَّني على يقينٍ أنَّ ما يحصلُ لن يتوقَّفَ، إلى أن يتمَّ عملُ غنيمةَ بالكامل، وطبعاً الضحيَّةُ كانت نوحاً الَّذي بدأتْ حالتُه تتدهورُ يوماً بعد يوم، من خلال تلك التصرُّفات الَّتي يقومُ بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

- هل انتهى كلُّ شيء عند هذا الحدِّ؟ هل حقَّقتِ كلَّ ما ترمين إليه؟

قالتها صفيةُ زوجةُ إبراهيم بعصبية، والغيظُ يتفجَّر من وجهِها ممَّا سمعَت.

قالت لها حسنة بعد أن ركَّزت نظرَها على الحائط:

- لم ينتهِ كلُّ شيء، الدائرةُ كانت تتسع، كالنار الَّتي تبتلعُ كلَّ ما تراه في طريقها، وَضْعُ نوحٍ بانحدار، كنَّا نسمع صوتَه كل ليلة يصرخ في غرفته من دون أيِّ أسباب واضحة، يقول أنَّ هناك شخصاً معه يحاول قتلَه، الاستنفارُ في المنزل كان يزدادُ يومياً، الجميع كان قلقاً ومتوتراً، وبالتحديد والدُه الَّذي كان ينهار كل ما ازدادت حالةُ ابنه سوءاً.

قاطعَها عدنان وقال:

- ما الَّذي حصل لضحى في هذا الوقت؟

هزَّت رأسَها بأسىً وقالت:

- ضحى قصَّتُها لم تختلف كثيراً عن قصَّة نوح، لكنَّها كانت أكثرَ تماسكاً.

لم يلتقِ نوحٌ بضحى بعد ليلة الحفلة والأحداثِ الَّتي صاحبَتْها، بسبب رفضها مقابلته بحُجَّة أنها بحالة نفسيَّة مُزْريةٍ منذ تلك الليلة، وكان نوحٌ في تلك الفترة يزورُ منزلَها بشكل متواصل، يريد فقط الجلوسَ معها ولو لدقيقة واحدة، لكنَّه في كل مرَّة يفشل، علماً أن الجميعَ كان يستغرب من رفض ضحى لمقابلته، بعدما كانت تنتظرُ ارتباطَهما بفارغ الصبر، وكان شغفُها أن ينتهي حفل الزفاف لتنتقلَ لعشِّ الزوجية مع حبيبِها من دون أيَّة منغِّصات، وما حدث بعدها شكَّلَ صدمةً للجميع، وأوَّلهم نوح الَّذي كان يُعاني مِن أمرَين؛ الأول الهلاوسُ والوهمُ الَّذي كان يصيبُه ما بين الحين والآخر، والصدُّ الَّذي يُلاقِيه من ضحى، الَّتي هي نفسها لا تعرف لماذا تتصرَّف بهذه الطريقة، ثم جاء ذلك اليوم الَّذي غيَّر مجرى الأحداث، أو بمعنىً أدق جعلها أكثرَ وضوحاً.

عندما أصرَّ نوحٌ على مقابلة ضحى، ضارباً بعرض الحائط كلَّ الأعراف، ليقتحمَ المنزل، وهو يريد معرفةَ أسباب رفضِها له، بعدما كانت تحبُّه كلَّ هذا الحبِّ.

وضعه بالمجمَلِ تغيَّرَ كثيراً، أصبح أكثرَ نحولاً، أناقتُه بدأ يفقدُها، تفكيرُه أصبح مشتَّتاً، وكاد يخسرُ عملَه بسبب الأخطاء الَّتي كان يقع بها، نفسيَّتُه كانت مضطربة، يفتعلُ المشاكلَ على أتفه الأسباب، وبنفس الوقت يدَّعي أنَّ هناك أشياء تظهر له، وأحلامُه تحوَّلت كلُّها إلى كوابيس، وجهٌ من العدم يظهر له

في الأحلام يتوعَّدُه بالمزيد من الدمار، وفي هذا الوقت هو يحتاج لضحى ليُعيد ترتيب نفسه.

وصل نوحٌ لباب غرفة زوجتِه، ليقتحمَها بشكل مباشر، ويجدَها جالسةً على أحد الكراسي، فقفزت بفزع، وما إن وضعَ عينه بعينها، بدأ يشعرُ بتلك الأشياء الَّتي جرَتْ يوم الحفل، وجهُ ضحى تغيَّرَ، بدأ يُحوقِلُ ويُبَسمِلُ ويتعوَّذُ من الشيطان، ليواجِهَ ما يراه، وجهُها لا يزال بتلك البشاعة، روحُه لا تقوى على هذه الأحداث، لكنَّه بدأ يُقاوِم، وقال بصوت عالٍ:

- لماذا تظهرِين لي بهذه الصورة؟ أكادُ أُجنُّ!

كانت ضحى هي الأخرى تشعرُ بنفس المشاعر، تراه شخصاً آخر، غير ذلك الَّذي تعرفُه، لم تجبْ على سؤاله؛ لأنها كانت مدهوشةً مما يحصل.

أعاد سؤالَه... بعدما أحسَّ أنَّ وجهَ ضحى بدأ يظهرُ أمامَه بشكلِه الطبيعي.

- لماذا تتجاهلينَني وترفضِين الجلوسَ معي؟ متناسيةً كل أيَّامنا الجميلة بهذه السهولة!

نهضت ضحى من الكرسيِّ، وراحت تتقدَّمُ نحوه، لأنها هي أيضاً بدأتْ ترى وجهَه الحقيقيَّ، وقلبُها راح يخفقُ بسرعة، لتُمسكَ كتفَيه وتقول:

- نوحٌ؟ حبيبي هذا أنت؟ لماذا كلُّ هذه البعثرة على وجهِك؟ لماذا كلُّ هذا الشحوب؟

بدأ نوح يتنفَّس بشدة، وعنفوانُ قلبه راح يزداد ضراوة، كأنَّه للتوِّ أصبح يستنشق عَبَقَ الحياة وقال:

- لا أستطيعُ العيش من دونك، دعينا نرجعُ كما كنَّا في السابق.

ليحتضنَها إلى صدره وبكى الاثنان، وسط دهشة الجميع، الَّذين يتساءلون في داخلهم: ما نوع هذا الحب؟ لا يُريدان الالتقاء، وعندما يلتقون يتبادلون هذه المشاعر الجيَّاشة!

هدأ الحالُ قليلاً، وراح الاثنان يتعاتبان على تلك الأيام الَّتي مرَّت عليهما من دون لقاء، كانت ضحى تقولُ له:

- إن هناك شيئاً غريباً في داخلها يمنعها عنه.

فيما قال نوح أنه يشعر بنفس الأحاسيس، ولا يعرف أسبابَها، هنا حصل الشيءُ غير المتوقَّع، بعدما تنفَّس الجميعُ الصعداء، ظانِّينَ أنَّ الأمورَ عادت لوضعها الطبيعيِّ،

وقف نوح فجأةً من الكرسي الّذي كان يجلس عليه، ثمَّ صفعَ ضحى بكلِّ قوَّته صفعةً مدوِّيةً، وبعدها قام بشتمِها بأبشع الألفاظِ هو يردِّدُ هذه الكلمات:

- من هذه المرأة الَّتي تجلس بجانبي، إنها بشعة... بشعةٌ وجهُها كوجهِ البومة!

في نفس الوقت، تغيَّر حال ضحى، وبادلت نوحاً نفس الشتائم والضربِ بأيِّ شيءٍ تجدُه أمامَها، حتى إنها تركتْ جرحاً على وجهه، وهي تردِّدُ:

- اطردوا هذا المَسْخَ من غرفتي.

وبعد نزاع كبيرٍ، تدخَّل بعضُ الموجودِين في المكان، وقاموا بسحبِ نوح من الغرفة، وهو في حالة يُرثى لها، بينما قامَت أمُّ ضحى بقراءةِ بعض الآيات القرآنيَّةِ؛ لأنها كانت تعرفُ أنَّ الوضع خارجٌ عن المألوف، والجنونُ بات يأخذُ منحنىً أكثرَ حِدَّةً، لا يستطيعُ أيٌّ منهم وضعَ رادِعٍ له.

عاد نوح إلى المنزل برفقة إبراهيم، الَّذي قال أنه طوال الطريق لم ينطقْ بأيَّة كلمة، كان هادئاً، ولم يتجرَّأ وقتها على الحديث معه بسبب الأوضاع المحرِجة الَّتي حدثَتْ، ولا يعرف ما هي أسبابُها السريعة.

كانت هذه الوقائع تُلقي بظلالها على والدِ نوح، الَّذي زاد انتكاسُه بعد هذا اليوم، ليقرِّر زوجي أن يعرضَه على بعض المشايخ من أجل قراءة الرُّقية الشرعية عليه، وإيقافِ كل هذا العَبَث، لكن كلَّ محاولاته باءت بالفشل، وأوضاعُ نوحٍ تزداد سوءاً بشكل مستمر، الأمر الَّذي أثَّر على عقله بوضوح.

وهذا ما جعلني وقتَها أشعر بندمٍ شديدٍ على فعلتي، وقرَّرتُ أن ألقيَ كلَّ خوفي ورِاء ظهري، وأتصلَ بغنيمة وأوقفَ كلَّ ذلك، لأنقذَ نوحاً من هذا الجنون، وأُغيثَ زوجي الَّذي بدأتُ أفقدُه بعد انهيارِ صحَّته هو الآخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

توقَّفت حسنة عن إكمال حديثها، وبدأتْ تشعرُ بدوارٍ، واضعةً يدها على رأسِها وهي تتأوَّه، هالةٌ من التوتُّر والصدمةِ باديةٌ على وجوهِ الموجودِين في الغُرفة، ولا تزال تضعُ يدها على جبينِها وهي تقولُ:

- إن الصداعَ يزدادُ.

همس مهابٌ وقال:

- سببُ الصداع الصراعُ القائمُ الآنَ بين صارم وذلك الشيءِ الَّذي يسكنُها، اطلبْ منها التَّماسُكَ وإكمالَ الحديثِ لنصل إلى الحقيقة.

بالفعل هذا ما قمتُ به.

لاحت على وجهِها علاماتُ المقاومة وقالت:

- الحياة لا تتغاضى عن دفعِ الثمن أبداً، وهذه أنا الآن أدفعُه.

قال لها أسامة:

- هوِّني عليكِ يا أمِّي، كلنا هنا نريدُ مساعدَتَكِ.

قالت بتألُّم:

- مساعدتي مرتبطةٌ بقول الحقيقة، وإنقاذِ ذلك الرَّجلِ الملقى في مستشفى الطب النفسي، دعوني أكمل، أشعر بضيقٍ شديد على صدري، وراحتي برواية القصَّة لكم.

الذي حدث بعد ذلك أن الهلاوسَ أصبحتْ لا تفارق نوحاً، لا يدركُ الزمانَ ولا المكان، ويتحدَّث بقصصٍ غير حقيقية، ويغيب عن المنزل لفترات طويلة، وأغلب الأحيان تراه جالساً عند بيت ضحى على أحد الأرصفة، وأعتقدُ أن إبراهيم وأسامة عاشوا تلك الفترة البائسة.

كان ينتظر خروجَ ضحى، فهو قد وعدَها بوجبة غداء بعد إتمام الزواج، وهو كالمجنون الَّذي لا يهتدي لطريقه، والوضعُ متعبٌ للجميع، لم أكن أتصوَّرُ أنَّ الموقف سيخرج عن المألوف، كل ما كنتُ أريدُه أن يفترقَ الاثنان.

لم أُطِقِ العيش هكذا، وجلُّ ما أريدُه إيقافُ هذه الفوضى الَّتي صنعتُها، قمتُ بالاتصالَ على غنيمة، وقلتُ:

- أعلمُ جيِّداً أنَّ طلبي صعبٌ، وكلُّ ما أريدُه إيقافُ كل ما فعلته معك، الوضعُ يزداد سوءاً.

أجابتني قائلةً:

- أبلغتُك مِن أوَّل يوم حضرتِ فيه إليَّ، لا مجالَ للتراجع أبداً، لا تتعاملي مع الأمرِ كأنَّه ثوبٌ قد اشتريتِه من أحد الأسواق ولم يكن بمقاسِك، والآن تُريدين أن تستبدلِيه، الَّذي حصل لن يتوقَّف حتَّى يُتِمَّ الأعوانُ ما يقومون به، هذه قوانين تلك العوالِم، ولا مجالَ لتبديلِها.

أُغلِقَتْ جميعُ الأبواب بوجهي، وبنفس الوقت، بعد أن أنهيت المكالمة مع غنيمة، كان أسامة بالقرب من الغرفة الَّتي أتحدَّث فيها معها، وسمعَ كلَّ شيء.

وقال لي بعد أن اكتسى وجهُه بعلامات العَجَب:

- هل أنت السببُ في كل ما يحدثُ لنوح؟

لم يكن وقتَها لديَّ أيُّ إجابة.

واصل حديثَه بعد أن جلسَ بقربها ضامًّا ذراعَيه إلى صدره وقال:

- لم أكن أتوقَّع أنْ تبدرَ منك كل هذه الأفعال، وبرغم ذلك لا أنكرُ سعادتي الداخليةَ لما يجري لنوح، فهو في نظري ليس جديراً بتلك المكانة في قلب أبي!

لم أكن أتوقَّعُ ما قاله لي أسامة، لكنِّي برَّرتُ أعمالي تلك قائلةً:

- فعلتُ كلَّ ذلك لأجلِك، أريدُكَ أن تكون أفضلَ منه بكل شيء، والدُكَ كان يفرِّقُ بينكما في المعاملة، نوحٌ هو الأفضلُ، نوح الأعقلُ، نوح أوَّلاً والباقي بعدَه، كل ما أريدُه أن أجعلَكَ متميِّزاً وقريباً من والدِكَ، لم أكن أتصوَّرُ أن الأمور ستصلُ إلى هذا الحدِّ!

غزت وجهَه ابتسامةٌ صفراءُ خبيثةٌ وقال:

- على ما أظنُّ أنَّك نادمةٌ على أفعالك، ولا أرى سبباً لندمِكِ هذا، فنوحٌ يستحقُّ ما جرى له.

اتسعَتْ حدقتا عينيَّ بعد ردَّة فعلِ أسامة تلك، لكنِّي قلتُ في نفسي:

- هذا ما زرعتِه في الأيام الماضية، واليومَ تحصدينه بتلك الشخصية النرجسيَّة.

قطعْتُ لحظةَ الشرود تلكَ وقلتُ:

- لا أريد سماع أيَّة كلمة بهذا الخصوص، وليس أمامنا سوى الانتظار لنرى ماذا سيحصل.

كنتُ أظنُّ أنَّ أسامة سيغضب، إلا أنَّ ما حصل جعلني أقفُ مصعوقةً، من برودِه اتجاه أخيه، وسعادته بما وصل إليه، وكان هذا ظاهراً في كل تصرفاته وأفعاله، بعد أن بات يتجهَّزُ لتزعُّم هذه العائلة، ضارباً بالحائط كلَّ الأعراف، ولم يتحرَّك في داخله ضميرُه الَّذي توقعتُه أن يحنَّ على شقيقِه، وسوءِ حالة أبيه.

انتكسَتْ حالةُ والد أبي نوح كثيراً، وتطلَّبَ الأمرُ إدخالَه إلى المستشفى، وكلُّ هذا انعكسَ على حالة ولدِه، الَّذي أصبحَ لا يفرِّقُ ما بين الخيال والواقع.

في صباح أحد الأيام، سمعتُ طرق الباب، ذهبَتِ العاملةُ المنزليَّة تريدُ معرفة من الطارق، ولكنَّ إبراهيمَ سبقها وأتاني يحملُ بيده ظرفاً، وعندما فتحَه أصابَتْه الدهشةُ بعد ما قرأ ما بداخل الورقة، سألْتُه: "ما المكتوبُ فيها؟"، قال:

- إنها من وزارة العدل، ضحى أقامتْ دعوى طلاقٍ على نوح.

نعم الخبر كان صادماً للجميع باستثنائي، وهناك موعدٌ للجلسة قريباً، وسبب إقامة دعوة الطلاق أنَّ نوحاً يُعاني من بعض المشاكل النفسيَّة والعقليَّة، والتي باتت تؤثِّر على علاقتهما.

لم يكن هذا الأمرُ بالشيء الكبير في مقابل ما فعلَه أسامة، بعدها مباشرةً قام بإبلاغ نوح بشأن طلب ضحى للطلاق، لتحلَّ الكارثة، نعم لم يتحمَّلْ نوحٌ وَقْعَ المصيبةِ عليه، فثار كما يثورُ البركان الخامد، كنَّا وقتَها نجلس في غرفة المعيشة، لنتفاجأ بصراخِه قادماً من الأعلى، دقائقُ ووجدناه أمامَنا، مسرعاً نحو باب المنزل يريد الخروج، محطِّماً كلَّ ما يراه أمامَه ويعرقل طريقَه، وأسامة خلفَه يحاول اللحاقَ به.

قال إبراهيم مستفسراً:

- ما الأمر؟ لماذا هو غاضبٌ بهذه الطريقة ما الَّذي فعلتَه؟

قال أسامة بكل برود:

- لم أفعل شيئاً يستحقُّ كل هذا الغضب، فقط أخبرتُه بشأن دعوى الطلاق المقامة ضدَّه من قِبَلِ ضحى.

ارتسمت علاماتُ الحَنَقِ على وجه إبراهيم، ويومَها لامَ أسامةَ على فعلته تلك، والذي كان دائماً ما يبرِّرُ ما فعَلَه بقوله: "لا بدَّ علينا أن نبلغَه ذلك ليعودَ إلى رشده"، كنت أعلمُ أن أهدافَ أسامة باتت أكبر من ذلك، خاصةً أن والدَه يعيش بحالة مَرَضِيَّة، وأخوه الكبير يمرُّ بظروف صعبة، والآن هو كبير العائلة، والمسؤوليَّة كلُّها مُلقاةٌ عليه، أهداف أسامةَ هي السيطرة على العائلة، لم يأبَه لِمَا يُعانيه نوح.

نعم لقد وصلتُ لجميع أهدافي ودانت السيطرة لولدي، لكنِّي خسرتُ شخصَينِ مهمَّينِ؛ زوجي وولدَه، وبنفس الوقت لم أستطع أنْ أقولَ أيَّ شيء، ففضَّلتُ الصمتَ وانتظارَ النتائج.

في ذات يوم وتحديداً بعد يومين من إبلاغ المحكمة بقضية الطلاق، اتصل بنا أبو ضحى، يطلبُ المساعدةَ من إبراهيم وأسامة، وأخبرَهم أنَّ نوحاً أمام منزلهم يصرخ بأعلى صوته يريدُ أن يتحدَّث مع ضحى، ويحاولُ تحطيمَ الباب.

انطلقَ الاثنان نحو بيت ضحى، وكانت المفاجأةُ عندما كان نوحٌ يقف أمامَ منزلهم، ممسكاً بعصاً حديديةٍ ويضرب بكل قوَّته على الباب، يطلبُ منهم أن يفتحوا له ليتحدَّث مع ضحى، كان بحالٍ يُرثى لها، وجهٌ شاحبٌ، وعيونٌ حمراءُ ملتهبةٌ من الغضب، وملابسُ رثَّةٌ متَّسخةٌ، كلُّ شيء كان يؤكِّد أنَّ نوحاً وصل لمرحلة الجنون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

هذه الجَلَبَةُ نبَّهت جميعَ الجيرانِ والمارَّة القريبينَ من منزل ضحى، فما كان من أبيها إلَّا أن فتحَ البابَ بعد وصول أبناءِ أخيه، وطلب منهم التدخُّلَ السريعَ في حال قام نوح بأيِّ تصرِّفٍ أهوج.

دخل الثلاثةُ وكان نوحٌ يصيحُ بأعلى صوته وبطريقة هِستيريَّة، بعيون زائغة يصرخ بتلك الكلمات:

- لماذا يا ضحى؟! لماذا تريدينَ أن تُنهي كلَّ شيء؟ لماذا تريدينَ قتلي بهذه الطريقة؟

لا يزالُ نوح يردِّد تلك العبارات والجمل، هو ثائرٌ مهتاجٌ على غير عادته الهادئة، وكان عمُّه أبو ضحى يحاول طوالَ الوقت أن يُهدئ من رَوعِه، وكلُّ محاولاته باءت بالفشل.

وأثناء هذه الضوضاءِ خرجَتْ ضحى، وظهرَتْ بوضع لا يختلفُ كثيراً عن وضع نوح، عمَّ الصمتُ المكانَ، والكلُّ كان مترقِّباً أن تؤولَ الأمورُ إلى ما هو أفضلُ، وأن يجدوا حلّاً يُرضي جميعَ الأطراف، لكنَّ جملةَ ضحى قد قطعَتِ الشكَّ باليقين عندما قالت:

- هذه القصَّة لا بدَّ أن تنتهيَ يا نوح، ولا تسألْني لماذا أفعلُ ذلك.

كان وَقْعُ جملتِها كغرسِ السكين في قلبه، ظلَّ صامتاً لفترة طويلة، يريدُ استيعابَ ما تقولُه، وبعدها بدقيقة، صاحَ بأعلى صوتِه وهو يُردِّدُ:

- أهو هَيِّنٌ عليك إنهاءُ هذه العلاقة بتلك الكلمة؟! هَيِّنٌ أن تقتلي هذا الحبَّ بكلمة؟! ألا تعلمينَ أن أقسى نهاياتِ الحب هي الَّتي تحصلُ بدون أسباب مقنعة! وأنتِ تفعلين هذا الشيء.

أجابَتْه وعيناها تفيضُ بالدموع:

- تأكَّد أنَّ هناك شيئاً يحصل في الخفاء أقوى مني ومنك، وكلَّما اقتربنا من بعضِنا البعض ابتعدنا أكثر، لم أجدْ حلّاً سوى أن نُنهيَ كلَّ هذا كي نرتاحَ.

قال لها بأسى:

- صدِّقيني ليس هذا حلّاً، إنَّنا سنقود أنفسَنا إلى الهلاك.

لم تكن هناك أيُّ إجابة، عاد الصمتُ من جديد، نوحٌ يجثو على ركبتَيه مترجِّياً ومنكسراً، وضحى تبكي بحضن والدتِها، ومن دون سابقِ إنذار، عاد نوحٌ لتلك التصرُّفات المجنونة، وبدأ يتلفَّت في المكان كأنَّه يبحث عن شيء ما، وقال:

- لم أنهي حديثي مع ضحى أين ذهبت؟

أجابه أسامةُ قائلاً:

- إنَّها تقفُ أمامَك!

اتَّجه نوح ناحيةَ المكان الَّذي أشار إليه أسامة، وبالفعل كانت ضحى تقفُ هناك، ليقولَ بشيء من الغرابة:

- تقصدُ هذه الَّتي أمامي! إنها تلك المرأةُ البومة الَّتي رأيتُها بليلة زواجي، والتي من يومها حالُنا قد تغيَّرَ كلُّه بسبب تلك القبيحةِ الَّتي دمَّرَت كلَّ شيء.

نهض بعدها واتَّجه ناحيتَها مسرعاً، ثم دفع والدتَها عنها، ليمسكَ بجسدِها بكل شراسة، ثم وضع يدَيه على رقبتِها بكلِّ إحكام، وقام بخنقِها وهو يردِّد:

- كل الَّذي يحدث بسببك أيَّتُها البشعة، لقد دمَّرتِ حياتي منذ أن رأيتُكِ أولَ مرة، وقلبتِ حالي، لا بدَّ لك أن تموتي كي تعودَ حياتي لوضعِها الطبيعي.

انطلق كلٌّ من أسامة وإبراهيم ووالد ضحى ناحيةَ نوح، الَّذي كان يُحكِمُ قبضتَه عليها مقرِّراً إنهاءَ حياتِها، وقد كان وقتَها وحشاً هائجاً، وبعد شدٍّ وجذب استطاعَ الثلاثة تخليصَها من بين يدَي نوح وإبعادَه عنها، وفي أثناء ذلك قامت إحدى أخوات ضحى بالاتصال بالشرطة، ولا يزالُ نوحٌ يحاول أن يتهجَّم على ضحى، الَّتي أصبحَتْ ترتعدُ خوفاً خشيةَ الموت على يدِ هذا المجنون، ونوح يردِّدُ تلك الكلمات:

- تكفي تلك الألاعيب، أريد أن أتحدَّث مع ضحى، كلُّ ما أريده أن أطلبَ منها أن نعود كما كنَّا في السابق.

رفض وقاوم كل محاولات إخوته وعمِّه لإجباره على الخروج من المنزل، حتى وصل رجالُ الأمن إلى لمكان، وبالقوة تم إلقاءُ القبض عليه، وأُخِذَ إلى مركز الشرطة، وهناك سُجِّلَتْ قضية شروع بالقتل، وهذا كله بسبب والدها الَّذي كان مُكرهاً على فعل ذلك من أجل حماية ابنته من تهجُّمات نوح وتصرُّفاتِه غير المسؤولة.

امتنعَت الشرطةُ عن إخلاء سبيلِه إلا بعد أن يتمَّ عرضُه على مستشفى الطبِّ النفسي، ومن خلالِ تقريرِها أكَّدَت المشفى أنه يعاني من بعض الأمراض النفسيَّة، بالإضافة إلى تخيُّلاتٍ غير واقعيَّة؛ أي أنه نوعٌ حادٌّ من الفِصام والهَذيان.

وذَكَرَ في التقرير حالاتِ الاعتداء الكثيرة على ضحى وأهلها، غير تصرُّفاتِه الأخرى، وهو ما جعل مستشفى الطبِّ النفسي تتحفَّظ عليه، وترفض إخراجه، وشُخِّصَ على أنه عدوانيٌّ وخطرٌ على المجتمع.

هذه الأخبار جعلت منزلنا بحالة حزينةٍ جداً، خاصةً على زوجي الّذي تأثّر كثيراً، وانعكس هذا على صحَّتِه، وجعلَه طريحَ الفِراش لمدَّة ليست بقصيرة، ودائماً كان يذكر اسم نوح، ولسانُه لا يَفْتُرُ عن ذكره حتى وهو في هذا الوضع، ويبحث عنه بشكل دائم، كان والدُه متعلِّقاً به تعلُّقاً كبيراً، والأحداثُ كلُّها متعبةٌ له منذ أن دخل نوحٌ مستشفى الطب النفسيِّ.

كانت هذه التداعيات لها تأثيرٌ كبير على حالتي، ضميري الَّذي يجلدُ رُوحي بسوطٍ من العذاب لا يُفارقُني ولا للحظة، لأنِّي المتسببةُ الرئيسيةُ بكل ما جرى، لم أكن أتوقَّع أنَّني سأصلُ بكلِ هذه الأمور لهذا الوضع، جنونُ نوح، مرضُ زوجي، وقرَّرتُ أن أقومَ بفعلٍ أُنقِذُ من خلاله نوحاً، وأُبْطِلَ كلَّ هذه الأعمال الَّتي قمتُ بها مع الساحرة غنيمة؛ ليستعيدَ زوجي عافيتَه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25

لم تتغيَّر الأحوال كثيراً بعد أسبوع من دخول نوح لمستشفى الأمراض العقلية والنفسية، وكل المؤشِّرات كانت تؤكِّد أنه فَقَدَ عقلَه، ولم يعدْ ذلك الرجلَ العاقلَ المتَّزن، الاضطرابُ النفسيُّ تمكن منه واستحوذ على عقله، لم يعدْ يشعرُ بمَن حولَه، ولا بأيِّ زمن هو، وطوال الوقت كان يردِّدُ تلك الجملة:

- أخرجوني من هذا المكان، لقد تأخَّرتُ على ضحى، إنها تنتظرُني على الغداء، ستغضبُ إذا لم آتِ في الوقت المحدَّد.

وجميع مَن في المستشفى يحاول أن يُبيِّنَ له أنَّ الأمور على ما يُرام، بعدها اشتدَّتْ حالتُه وبدأ بالصراخ الَّذي لا يتوقَّف، ولا ينام إلَّا بالمهدِّئات.

هذا ما قاله لي إبراهيم الَّذي كان متأثِّراً أكثرَ منَّا، بسبب وضع نوح، وبالتحديد بعدما كان يعود من زيارتِه، يدخل غرفتَه ويبكي بشدَّة بسبب ما وصل إليه حالُ أخيه، ولا يعرف كيفيَّة إنقاذِه، فجميعُ الأطبَّاء يؤكِّدون أنَّ نوحاً يحتاج وقتاً طويلاً ليستعيدَ عافيتَه؛ لأنَّ الصدمةَ العصبيةَ قد أثَّرت عليه، جسدُه الممتلئ قد نَحل، وجهُه الساطعُ بات مكفهرَّاً، عيناه الناصعتان أصبحتا ذابلتَين، شاردُ الذهن، مُتشتِّتٌ لا يعرف أين هو الآن، يعتقد أنه لا يزالُ في المنزل، يطلبُ دائماً منَّا الهاتفَ كي يعتذر من ضحى لتأخُّره على الموعد المتَّفَق عليه، كان منظرُه ينفَطِرُ له قلبُ إبراهيمَ الَّذي عايشَ كل هذه المآسي مع أخيه، وهو لا يستطيعُ المساعدة.

أمَّا ضحى فهي الأخرى ليست بأفضل حالاً من نوح، ولكنَّ حالتَها أقلُّ خطورةً، ومن الواضح أن السحرَ قد تسلَّط على نوح بالتحديد، وتمكَّن مِن ضحى الاكتئابُ، تبكي حالَها وتأبى مقابلةَ أيِّ أحد، وإن كان من أهل بيتِها، حزينةٌ طوالَ الوقت، قرَّرت تأجيلَ مسألة طلاقِها، ورفَضَتْ جميع الأطباء الَّذين قاموا بزيارتها، أجملُ وأذكى فتياتِ العائلة قد ذَبلَتْ.

وكما أخبرتُكم سابقاً... قرَّرتُ أنْ أوقفَ كلَّ شيء من خلال اتصالي بالساحرة، وكانت نبرتي هذه المرَّةَ معها حادَّةً جداً عندما قلتُ:

- لا بدَّ مِن إيقافِ كلِّ شي، فَقَدْتُ السيطرةَ على جميع الأمور.

أجابتني بذلك البرود المعتاد وقالت:

- لم أفعل شيئاً من تلقاءِ نفسي، كلُّ ذلك كان بطلبِكِ أنتِ، ومِن الصعبِ التراجعُ الآن.

توسَّلْتُ قائلةً:

- أرجوكِ يا غنيمة! مستعدة لأن أدفع لك ضِعفَي ما دفعتُ في المرة الأولى، في المقابل أن تُوقفي كلَّ شيء، أكاد أفقد زوجي.

ردَّت عليَّ بنوع من الاستهزاء:

- البوابات قد فُتِحَت، الموكَّلون يعملون، وهم لا يتوقَّفون إلى أنْ يُتمُّوا كاملَ عملِهم، وإن فكَّرتِ بفعل أيِّ شيء مضادٍّ سينعكسُ عليك بشكل مباشر، ومن الممكن أن تكوني مكان نوح.

الوقحةُ لم تُعطِني مجالاً لإكمال المكالمة، فقد أغلقت الهاتف في وجهي بشكل مباشر، كنت في وضعٍ محيِّرٍ أريد أن أصلَ لحلٍّ يُعيدُ الأوضاع إلى نصابها الأول، ويُنقذُ ما يمكن إنقاذُه، وردَتني مكالمةٌ بعد يوم من اتصالي بغنيمة.

كان الصوت على الهاتف صوتَ فتاة في بداية العشرينات من عمرِها، وقالت لي:

- إذا كنتِ تريدين إنقاذَ نفسِك من أفعال غنيمة، عليكِ أَخْذُ الصندوقِ الَّذي سأُعطيه لك، وبعدَها ستعودُ الأمورُ على ما يُرام.

قاطعتُها قائلةً:

- ماذا تقصدين؟ ومَن أنت؟ وكيف علمتِ بعلاقتي بغنيمة؟

قالت بصوت منخفضٍ جداً:

- لا مجال للشرح الوقتُ يسرقُنا، كلُّ ما أريدُه هو إنقاذك من هذا العَبَثِ، موعدُنا الليلةَ في السابعة مساء عند جمعيَّة الدسمة.

وأغلقت الهاتفَ بعدها بشكل مباشر، دون أن آخُذَ منها أيَّ معلومات إضافية، أبلغتُ أختي وداد بكل ما حدث، لتشيرَ علي أنْ أذهبَ إلى تلك الجمعية من أجل معرفة هذه القصة الجديدة.

ذهبتُ إلى ذلك الموعد، وفي رأسي الكثير من الأفكار والهواجس، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى وقفت بجانبي مركبةٌ من نوع "شفروليه" قديمةٌ نوعاً ما، يقودُها ولدٌ طويل القامة أسمر البشرة، وبجانبه فتاةٌ هادئة الملامح، وكما توقَّعتُ؛ هي في بداية العشرينات من عمرها، بيدها صندوقٌ متوسِّط الحجم، اتجهتْ ناحيَتي ووقفت أمامَ نافذة السيارة، وهي تمدُّ ذلك الصندوق وتقول:

- سينتهي كلُّ شيء بمجرد أنْ تأخُذِيه، عليك التعاملُ جيِّداً مع محتوياته، لا تفتحيه إلَّا بعد ثلاثة أيام.

لتتركَني وتذهبَ عائدةً إلى السيارة، غيرَ آبهة لأسئلتي الّتي أمطرتُها عليها، أريد معرفة مَن تكون؟ ما قصةُ هذا الصندوق الَّذي أعطتْني إياه؟ لم أفهمْ أيَّ شيء، كل ما عرفته أنَّ هذه الفتاةَ كانت في منزل غنيمة لمَّا ذهبتُ إلى ذلك المنزل أولَ مرة، وكانت تجلس في الحديقة الأماميَّة مع ذلك الشابِّ الَّذي يقود السيارة، وأعتقد أنَّ لهما صلةَ قرابة بغنيمة.

انطلقْتُ بالمركبة عائدةً إلى بيتي، شاردةَ الذهن منكسرةً بفعل الأعمال الَّتي قمتُ بها في السابق، وما إن وصلت حتى وجدتُ هناك الكثير من السيارات تقف أمام بيتي، بمنظر غير مألوفٍ لي، شعرتُ بانقباضٍ في صدري، نزلتُ وتفاجأت بوجود مجموعة من أقاربنا جالسِينَ مع أبنائي، وعلى ملامحِهم الحزنُ والأسى لأسمعَ تلك الكلماتِ من أسامة:

- عظَّمَ اللهُ أَجركِ يا أمِّي بوالدي!

كان الخبرُ كالصاعقة الَّتي نزلت على رأسي، لم أعدْ أستطيعُ الشعورَ بقدمَيَّ، وسقطتُ فوراً، ولمَّا أفقتُ من الإغماء، كان البيتُ يعيش فترةَ العزاء.

الندم هذا ما شعرتُ به، الندم إحساسٌ قاتلٌ كالطُّفيليَّات الَّتي تلتصقُ على قلبك، وتبدأ بأكلِه ببطء، كل ذلك بسببي، كل ما حدثَ أنا من أشعلتُ شرارتَه، وفي هذا الوقت نسيتُ الصندوقَ، ونوحاً المرميَّ في المستشفى، مرَّت ثلاثة شهورٍ بعد وفاة زوجي الَّذي كنتُ أخشاه ووقعتُ فيه، لم آبه لأيِّ شيء آخر، وتركتُ الأمورَ على وضعِها.

أسامةُ وصل إلى مبتغاه، وحقَّق أمنيَّتَه وأصبحَ بذلك كبيرَ العائلة كما يعتقد، وكلُّ ما يشغلُه تقسيم الإرث، وسطَ رفض إبراهيم، الَّذي كان يريد فعلَ أيِّ شيء من أجل إنقاذ نوح، ودائماً ما يردِّد:

- ما دام نوحٌ حيَّاً فهو كبيرُنا.

لم تُعجبْ هذه الكلماتُ أسامةَ الَّذي دخل في صدام أهوج مع شقيقه، وزادتِ الأمورُ تعقيداً، كنتُ وقتَها أقف بجانب ابني البِكر وبكلِّ وقاحة، ولم أكترث لكلام إبراهيم، الَّذي من يومها وهو في خلاف دائمٍ مع أخيه، المشكلةُ الأخرى الَّتي بدأتُ أشعرُ بها بعد سنة من وفاة والدِهم أنَّ كلَّ محاولاتي لتزويج أسامةَ تبوءُ بالفشل، وطبعاً طُرُقُ الرفض أو الاعتذار غريبةٌ جدَّاً، فالأمور تصلُ للنهاياتِ وأبعد ما يكون، لكنها تتعطَّل لأتفه الأسباب.

وقتَها تذكَّرتُ غنيمة، واعتقدْتُ أنَّه من الممكن أن تكون هي من تقفُ حجرَ عَثَرَةٍ أمام مستقبل أسامة، أو أي مخطَّطات لزواجه، وفطنتُ لذلك الصندوقِ الَّذي أعطتني إيَّاه تلك الفتاة، والذي نسيتُ موضُوعَه منذ ذلك الحين.

ولم أفهمْ لماذا قامت تلك الفتاةُ بتسليمِه لي، وكان كل همي وضعُ حدٍّ لمسألة تعطيل زواج ولدي أسامة.

وقمتُ بفتحِه ووجدتُ فيه الكثيرِ مِنِ الأشياء الغريبة؛ تمثالانِ أحدُهما بشكل أفعى، والثاني بشكل بومة، وأيضاً كان هناك الكثيرُ من الأقفالِ مختلفةَ الأشكالِ، وبعض من الأوراق الَّتي رُسِمَت عليها أشكالٌ وكلماتٌ غيرُ مفهومة، وخمسُ خواتم بألوان مختلفة، بالإضافة إلى ورقةٍ مطويَّةٍ مختلفةٍ كانت أكبرَ من الباقين، فتحتُها، لأجد أنَّها كُتِبتْ بخطٍّ مختلف، فيها ما يُشبِهُ الإرشادات، وبعض من الآيات القرآنيةِ لتجنُّبِ أيِّ طارئ ممكنٍ أن يحدثَ بسبب أعمال السحر، مذيَّلةٌ بتوقيعٍ باسم شيماء.

ومنها استطعتُ إيقافَ ووضْعَ حدٍّ لذلك الحدثِ الجَلل، الَّذي واجهَهُ إبراهيمُ وعائلتُه في المزرعة مؤخَّراً.

ولا أعلم سبب وجود تلك الأشياءِ الأخرى في الصندوق، تواصلتُ مع أختي وداد في ذلك اليوم وتحدَّثتُ معها، والتي بدورِها قالت لي:

- ما علينا سوى أن نذهب إلى منزل غنيمة، كي نفهم بالضبط ما الَّذي يحدث، خاصة أنَّ مكالمتَكِ الأخيرة معها، كانت عبارة عن شدٍّ وجذب.

لم أتردَّد ولا لحظة، وانطلقتُ إلى منزل تلك الوقحة، لكن هذه المرَّة كان المشهدُ مختلفاً عمَّا كان عليه في المرة الأولى، المنزل ذو الواجهةِ الجميلة والحديقة الأنيقة باتَ منزلاً موحشاً جداً، لم يكن بذلك السطوع وتلك الأنوارِ الَّتي تزيِّنُه، كل شيء بات باهتاً بلا أيِّ جماليَّة.

طرقتُ الباب عدَّةَ مراتٍ وانتظرتُ قليلاً، ولم تكن هناك أيَّةُ إجابة، وبعد مدة، خرج إليَّ ذلك الشاب الَّذي كان في منزل غنيمة أوَّل مرَّة، والمرة الأخرى عندما أخذتُ ذلك الصندوقَ من أمام جمعية الدسمة.

عرَّفني بنفسِه، وقال أنَّ اسمَه "فهد ابن غنيمة"، فهمت الآن سبب وجوده، وبعدها استفسرتُ إذا كانت أمه متواجدة، ليُخبرَني بكل برودٍ أنَّ والدتَه قد توفِّيَت منذ شهرَين، بعد أن احترقَتْ بها إحدى غرف هذا المنزل، كانت صدمةً وخبراً غير متوقَّع، دخلتُ إلى المنزل وتفحَّصتُ مكان الغرفة المحترقة، لأتأكَّد بعدَها أنه من المستحيل أن يخرجَ أحدٌ من هذا المكان حيَّاً، بسبب الدمار الكبير الَّذي خلَّفَه ذلك الحريق.

سألتُه مستفسرةً:

- ما الَّذي حدثَ هنا؟ وكيفَ حدث كلُّ هذا؟

أجابني:

- لا أعلم ما هي أسباب ذلك الحريق الّذي حصل فجأةً وبدون سابقِ إنذار، وبسببِه فقدتُ والدتي وأختي نادية.

كنت مندهشة من ردودِه الباردة، وتصرُّفاته غير المنطقيَّة، ولم تكن هناك أيَّة انفعالاتٍ على وجهه، كأنَّ المتوفَّاة ليست بأمِّه، فبعد سؤالي التفتُّ باحثةً عنه فلم أجدْه.

وفي أثناء عودتي تواردت عليَّ الهواجس، وتذكَّرتُ ذلك العملَ الَّذي قمتُ به، وهل سينتهي بموت غنيمة؟

وعلى نقيضِ ما توقَّعتُ تماماً، لم ينتهِ الوضعُ عند هذا الحدِّ، بل تجاوزَه بمراحل متقدمة، بدأتُ أرى في أحلامي أشياءَ غريبةً جدَّاً؛ أرى كأنَّني في مزرعة متهالكةٍ وفي نهايتِها هناك غرفةٌ محترِقةٌ، وفي داخلها كفنان، وبعد ثوانٍ أرى أنَّ هناكَ ثعابينَ صغيرةً تخرجُ من هذهِ الجثامِين، وبدأتْ تنظرُ إليَّ، لتجتمع هذه المخلوقاتُ مع بعضها البعض وتتشكَّلَ على هيئة بومة عوراءَ، في البداية كانت صغيرةً، وبدأت بالنموِّ إلى أن أصبحت عملاقةً وراحت تُلاحقُني أينما ذهبتُ، تريدُ الانقضاضَ، هنا توقَّفتُ وبدأتُ أسمعُ نباحَ كلب من بعيد، كنتُ ألهثُ مثلما تلهثُ الكلابُ، ولا أعرف ما السبب، بينما كانت تلك البومةُ تحلِّقُ فوقي ولا تريدُ مفارقتي، وهذا الكابوسُ لا يُفارقُني منذ أنْ كنت في منزل غنيمة آخر مرة.

أمَّا حياتي الطبيعية فلم تعدْ على ما كانت عليه في السابق، بل تحدثُ أمورٌ خارقةٌ للعادة، فدائماً ما أرى في جسدي عدداً من الإصابات والخدوش، سيطر الحزنُ عليَّ، وكنت مهمومةً كلَّ الوقت، وجعل مني ذلك إنسانةً انطوائيَّةً ومعتزلةً للناس، ولا أرغب بالتواصل معهم، كنت أحاولُ أن أسمعَ القرآنَ لأخفِّفَ هذا الألم، لكن بمجرَّدِ أن يبدأ المقرِئ بالتلاوة يصيبُني الضيقُ والصُّداع، وأبدأ بالبكاء، وغالباً ما أغلقُه.

و أسامةُ أيضاً حياتُه تغيَّرَت كثيراً، بات شارداً، ويقع في الكثير من المشاكل، ويتخذ قراراتٍ دائماً لا تصبُّ في صالحِه، الأبواب جميعها مغلقةٌ في وجهه، ناهيكَ عن فشل محاولاتي لتزويجه، والتي دائماً ما تنتهي بأسبابٍ غريبة، وغيرِ مفهومةٍ بتاتاً.

تأكَّدتُ أنَّ ما يحدثُ سببُه غنيمة، أعتقدُ أنَّ أعمالَها لا تزال ساريةً، والموكَّلون لا يزالون يعملون بها، لكن لم أعلمْ لماذا يتصرَّفون معي بهذه الطريقة، فطرأ على ذهني ذلك الصندوقُ الَّذي أخذتُه من تلك الفتاة، وتوقَّعت أنه سببُ كل ما يحدث، ففكَّرتُ بطريقة للتخلُّصِ منه، ولم أجدْ سِوى أن أخبِّئَه في المزرعة، وبالفعل ذهبت إلى هناك وقمتُ بحفر حفرةٍ ودفنتُه، باستثناء تلك الورقة المذيَّلةِ باسم شيماء، معتقدةً أنَّ الأمور ستنتهي عند هذا الحدِّ.

قاطعها عدنان وقال:

- هل هذا التصرُّفُ نابعٌ من نصيحة أحد، أم هو تصرُّفٌ شخصيٌّ؟

أجابتني والعرق يتصبَّبُ من جبينها رغم برودة المكان:

- بصراحة خفتُ كثيراً مِن استشارة أيِّ أحد حتى لا يُفتَضَحَ أمري، بل ما قمتُ به هو تصرُّفٌ شخصيٌّ، وبمساعدة أسامة، ورغم هذا كلِّه إلا أنَّنا لم نجد إلى الآن أيَّ نتيجة، وزادت المشاكلُ والظواهر الغريبة الَّتي آخرُها تلك الَّتي حدثتْ في المزرعة مع إبراهيم وعائلتِه، وعلمتُ أنَّهم بدؤوا يتمادَون كثيراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26

سكتَتْ هنا حسنة عن الكلام، وعلى ما يبدو أنَّ الحقيقةَ قد أوجعتْها عندما خرجت إلى العلن، تدخَّلَ مهابٌ مرةً أخرى وبدأ يهمس قائلاً:

- كل ما قالتْه صحيحٌ، الوقتُ يسرقُنا كثيراً، أنت تعرفُ أنَّ المشعوذَ عندما يموت يتحرَّرُ أتباعُه، وغنيمة ماتت محروقةً في الغرفة تلك مع ابنتِها، وتحرَّر هذا الكيان الَّذي بات يهدِّدُ حسنة وعائلتَها، وكما يقولون: "انقلب السِّحرُ على الساحرِ".

خاطرتُه قائلاً:

- العمل.. العمل مدفونٌ في عين الكلب.

ردَّ مهابٌ بحماس كبير وقال:

- بالفعل كلامُك صحيح، لا مجالَ للتأخير، اذهب إلى المزرعة الآن وحرِّرْ عين الكلب وما بداخلها، ومِن الممكنِ أنْ تعود الأمورُ إلى ما كانت عليه، الوقتُ يُسرَقُ منَّا، حياةُ حسنة ونوح مهدَّدتان، بدأتَ تعرفُ يا سيدي كيف تكشِفُ الأمورَ، دائرةُ بصيرتِكَ تتَّسعُ.

نهضتُ بشكل مباشر من مكاني، ووجهتُ كلامي لإبراهيم وقلتُ:

- لا بدَّ لنا مِن الذهاب الآن جميعاً إلى المزرعة، آنَ أوانُ إبطالِ السحر، وتحريرِكُم من ذلك الكيان.

لم يتفوَّهْ إبراهيمُ بأيَّة كلمة، بل قام سريعاً، وطلب من أسامةَ أخْذَ والدتِه في سيارته، بينما أنا ذهبتُ مع إبراهيم، وقبل خروجنا من المنزل نادتني حسنةُ وأسرَّتْ في أذني ببعض الكلمات، صُعقتُ مِن جُملتِها، وبعدها طمأنْتُها أنَّ الأمورَ ستسيرُ على ما يُرام.

وما إن وصلنا إلى المزرعة، حتى شعرتُ بتلك الانقباضة في صدري، أولُ ما لفتَ انتباهي هو النباحُ المتواصلُ لذلك الكلب ذي العين الواحدة، مكشِّراً عن أنيابه وهو يُزمجر بشكل مزعجٍ وغاضب، معرِباً عن خطر يُحاصرُه، ومستعدَّاً للانقضاض عليَّ.

قلت وقتَها لإبراهيم:

- حاول أنْ تُسيطرَ على الكلب.

نظر إليَّ وقال:

- ما الَّذي تريدُ فِعلَه؟

أجبتُه:

- العملُ الَّذي قامت به غنيمة دفنَتْه في عين الكلب، تذكَّرْ كلامَ والدتكَ عندما أعطَتِ الكلبَ لغنيمة، وبقيَ عندها ليلةً واحدةً، ولما جاءتْ والدتُك لتأخذَه وجدَتْ عينَه مطموسةً كما ترى.

أدرك إبراهيم ما يرمي إليه عدنان، وفكَّر بطريقةٍ سهلة للسيطرة عليه، بينما الكلبُ لا يزال ينبَحُ بكل قوَّة، تقدَّم ناحيتَه محاولاً مُسايستَه من أجل أن يهدأ، لكنَّه كان بحالةٍ مسعورةٍ، قلتُ له هنا:

- الوقتُ يسرقُنا يا إبراهيم، حاولْ أنْ تُحكِمَ قبضتَكَ عليه، مقاومتُنا لذلك الكيانِ بدأتْ بالتلاشي، وإذا عاد وهيمَنَ لن نستطيعَ أن نفكَّ تلك العُقدة، هم متمكِّنون منكم بسببِ تلك الأعمالِ الَّتي قامَت بها والدتُكَ.

انتهيتُ من كلامي عند وصول أسامةَ ووالدتِه إلى المكان، وكان الأسى واضحاً على وجهِها، وهي تُردِّدُ تلك الكلمات:

- هذا جزائي! لا تحزنوا عليَّ كثيراً، دعوني أدفعُ ثمن أخطائي، وكما يقولون: "كما تدينُ تُدان"، أنقِذوا المسكينَ نوحاً، إنَّه يستحقُّ الحياةَ أكثرَ مني.

عاد مهابٌ للهمسِ ثانيةً وقال:

- أسرعْ وفُكَّ العُقَدَ، مقاومتُنا بدأت تنهارُ.

تقدم إبراهيم إلى الكلب وحاولَ مغافلَتَه من الخلف، ثمَّ دنا نحوَه بحرص، حاول الكلبُ هنا أن يعضَّه، إلَّا أنَّ جسد إبراهيمَ هو ما ساعدَه على تثبيتِه، لكنَّ الكلبَ أفلَتَ منه بحركةٍ سريعة، وقام بعضِّ ساعدِه، صرخَ متألِّماً، وكانت ردَّةُ الفعل من إبراهيم أنَّه لطمَ الكلبَ على وجهِهِ بسبب الوجع الَّذي تعرَّضَ له، فسقطَ الكلبُ على الأرضِ من قوَّة الضربة.

همس لي مهابٌ وقال:

- ردِّدْ هذه الآياتِ الَّتي تُبطلُ تلك الأعمالَ قبل أن تفتحَ ما في داخل العين.

تقدَّمتُ بكلِّ حذرٍ ناحية الكلب الَّذي كان شبهَ مُغمىً عليه، وبدأتُ بترتيل تلك الآيات الَّتي قالها مهابٌ، وقرأتُ بعضاً من الأدعية، سكن الكلبُ واستسلمَ لي بشكل تامٍّ بعد أن انتهيتُ من ترديد الأوراد، مددتُ يدي لعينه المطموسةِ بحذرٍ شديد، عاد مهابٌ مرةً أخرى وقال:

- لا تخفْ! اضغطْ على مكان العين واسترخِ، ولا تفكِّرْ بأيِّ شيءٍ آخر، كلُّ ما عليك هو الضغطُ، ستجدُ كلَّ شيء بعد ذلك بيدِكَ.

نفَّذتُ ما قالَه، كنتُ أضغط وأزيد بضغطي بشكل تدريجي، والكلبُ بحالةِ سَكينةٍ تامَّةٍ، في هذا الوقت كانت حسنة أمامي تتشنَّج، لتسقطَ على الأرض منتفضةً كأن تيَّاراً كهربائيَّاً مسَّ جسدَها، عيناها تتقلَّب بسرعة، وتتدحرجُ على التراب، حاول أسامةُ إيقافَ ما تفعله، لكن لم يستطيع بسبب القوة الهائلة الَّتي حلَّت عليها، كنت أمارسُ الضغطَ وفجأةً شعرتُ أنَّ عين الكلب لفظَتْ كيساً صغيراً جدَّاً من البلاستيكِ مغلقاً بإحكام، هنا أحسَسْتُ أنَّ الكلبَ بدأ يتنفَّسُ، ونهضَ من مكانه، وراح ينظرُ إليَّ بتودُّدٍ، نظراتُ عينه قد تغيَّرَت، وقام بالتقدُّم ناحيةَ قدمي يشمُّها، حتى أنَّ نباحَه قد انقطع.

مهاب يقول مرةً أخرى:

- افتح الكيسَ وانشر ما بداخله في المكان، ولا تحاولْ أن تقرأَه.

قمتُ بفعل ذلك كما طلبَ، فانتابتني حالةٌ من الضيقِ كأنني دخلتُ في علبة كِبريت رغم اتساعِ المكان، شعرتُ أنَّ الهواءَ الثائرَ من حولي قبل قليلٍ قد انقطعَ فجأةً من دون سابق إنذار، كنتُ في دوَّامة لا أعرفُ لها مخرجاً.

أشهقُ محاوِلاً التنفُّسَ، والصداعُ قد نخرَ رأسي، وأقاومُ كلَّ تلك الحالةِ الَّتي تحصل، جلستُ على الأرض ألهثُ كأني كنتُ أركضُ لمسافة طويلة.

في هذا الوقتِ وقعَ شيء قد قلبَ كل التوقُّعات، كنتُ مُوقناً أنَّه بمجرَّد إخراجي العملَ المدفونَ في عين الكلبِ ستعودُ الأمورُ على ما يُرام، وأنَّ المهمَّةَ قد انتهَتْ وأنَّنا قضينا على ذلك السحر والكيانِ الَّذي يتصارع مع صارم، وللأسف الَّذي جرى بعدها كان شيئاً فاق كلَّ التَّكهُّناتِ، وقَلَبَ الخطَّةَ الَّتي وضعتُها مع مهاب.

نهضَتْ حسنة من مكانها بعد أن كفَّتْ عن الصراخِ وحالةِ التشنجاتِ التي كانت بها طوال فترةِ عملية فتحي لعَينِ الكلب، نظراتُها كلُّها شراسةٌ، فيما أسامةُ وإبراهيم كانا مذهولَينِ من نظراتِ والدتِهما، غيرَ مدركَينِ لِـما يحصلُ، لم أفهمْ في تلك اللحظاتِ ما يحدث.

قال هنا مهاب:

- الذي يجري شيءٌ غريبٌ! الكيانُ قضى على صارم، لقد ازدادَ قوَّةً بعد أن أخرجْنا الكيسَ من عين الكلب، هناك شيءٌ ناقصٌ لم نقمْ به، إذا استمرَّ الوضعُ على ما هو عليه سيقضي هذا الشيطانُ على أحد من الموجودِين، عينُ الكلب جزءٌ من العمل وليسَتِ السحرَ كلَّه.

قطعَ لحظةَ التَّهامُسِ تلك صوتُ المتلبِّسِ الَّذي في داخل حسنة وقال:

- ألم أقل لكم أنَّكم لن تستطيعوا أن تفرضوا سيطرتَكم؟! نحن الآن من يُمسِكُ بزِمامِ الأمور، أحذِّرُكَ يا عدنان! إذا لم تخرجْ من المزرعة، سأنتزعُ كلَّ ما بداخلِكَ مِن قوَّة.

كان الوضعُ العامُّ في غاية السوء والارتباكِ، خاصَّةً بعدما سقط كلٌّ من أسامةَ وإبراهيم على الأرض، وكنتُ أعتقدُ أنهما ماتا، لكنَّ مهاباً قال هامساً:

- تأثير السحرِ يا سيدي، لا تهتمَّ ركِّزْ جيداً، إنَّه يُريدُ تشتيتَكَ، حاول أنْ تكتشفَ الحلقةَ المفقودةَ في هذا المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

همس مهابٌ وقال:

- غنيمة لم تكن ساحرةً عاديةً، لديها أعوانٌ كِبارٌ من عالَمنا، وتتعاملُ مع مخلوقاتٍ شيطانيَّة تفوقُ كلَّ قدراتِنا الحاليَّة.

قلتُ له بعد أن زادَ توتُّري:

- ما العمل يا مهاب! لا أريد أن أفقدَ أحداً!

وقتها لم نكن نهتمُّ بحالة الكلب، وإلى أين ذهبَ إلَّا بعدما بدأ بالنباحِ.

- نظرتُ إليه من مكاني، لأجدَه يقفُ بعيداً تحت شجرة، ينبَحُ بالإلحاح، وهو ينظرُ إليَّ ويهز ذيلَه، تذكَّرتُ كلمات والِدتي؛ تجلَّى في حال أنَّك فقدْتَ السيطرةَ وعشتَ بحالة التَّوَهَانِ، وبدأتُ أُركِّزُ.

الوقتُ يمضي بسرعة:

عاد الهمسُ لكن هذه المرَّةَ بصوت مختلفٍ أعرفُه جيداً، صوتٌ رخيمٌ، إنَّه الشيخُ زهران وقال:

- بالتَّضحيات تُنجَزُ المهمَّات، ركِّز على المكان الَّذي ذهبَ إليه الكلب.

نعم كنتُ متأكِّداً أنَّ للكلب مغزىً معيَّن، هرولتُ إليه، وهو لا يزال مستمراً بالنُّباح، وهو ينظر إليَّ ويهز ذيلَه، ثم بعد ذلك يشمُّ الأرضَ، أغلقتُ عينيَّ بإحكامٍ، أحاولُ أن أفهمَ حركتَه تلك الَّتي يفعلُها، والوصول إلى حلٍّ ينقذُنا مما نحن فيه.

عاد مهاب وقال:

- إنَّ حسنة في حالة سيِّئةٍ جدَّاً، ومن الممكن أن نفقدَها بأيَّةِ لحظة، قوةُ الكيان تزدادُ ضراوةً، وكلَّما مرَّ الوقتُ يسيطرُ أكثر.

تداخلَ مع همسِ مهابٍ همسٌ آخرُ إنَّه الشيخُ زهران مرَّةً أخرى وقال:

- الحل مدفونٌ تحت الشجرة، لا تفكِّرْ كثيراً، التفكير الطويلُ يُضيعُ الوقت ولا جدوى منه، أصغِ لنفسِك ستجدِ الحلولَ.

نعم ما يقوله حقيقيٌّ، فهمتُ الآن حركةَ ذلك الكلب، إنه يطلبُ منَّا الحفرَ في هذا المكان.

بدأتُ أبحثُ حولي أريدُ إيجادَ أيِّ معولٍ أقومُ من خلاله بحفر تلك الأرض، وجدتُ عموداً حديدياً، أسرعتُ لأخذِه وقمتُ بالحفرِ على الفور، لم تكن

بالعمليَّة السهلة، العرقُ يتصبَّبُ من جبيني، وكنتُ أعلم أن الوقتَ يسير وهو لا يُبالي، وبعد مدة قصيرة، ظهر في التراب شيءٌ خشبيٌّ برَزَت ملامحُه من تحت الأرض، واصلتُ النبشَ وإزاحةَ الترابِ عن أعلى الشيء الذي ظهر، واستطعتُ إخراجَه، لأجدَ ذلك الصندوقَ الخشبيَّ متوسِّطَ الحجم، وبعدها فتحتُه بشكل سريع، لأجدَ داخلَه تمثالَينِ صغيرَينِ الأوَّلُ على شكل رأس بومة، والثاني على هيئة ثعبانٍ ذو قرنَينِ، وعدداً من المفاتيحِ الصغيرةِ غريبةِ الشكل، وأوراقاً عدَّةً لم أفهمْ ما هو مكتوبٌ فيها.

همس هنا مهابٌ وقال:

- هذه الحلقةُ المفقودةُ سيدي عدنان.

فهمتُ الآن! وجدتُ تكملةَ ذلك العمل، وتذكَّرتُ ما قالتْه حسنة أنَّ الصندوقَ الَّذي أخذَتْه من الفتاةِ وذلك الشابِّ المدعوِّ "فهد"، مدفونٌ في المزرعة، تقدَّمتُ ناحية حسنة الَّتي كانتْ تنظر إلي بشرَرٍ، ونهض هنا إبراهيم، وهو يحدِّقُ حولَه بذعرٍ ويُردِّد:

- ما الَّذي حصل يا شيخ!

وحدَّقَ بيديَّ ورأى ذلك الصندوقَ والتماثيلَ الَّتي أحملُها، تراجعَ إلى الوراء وقال:

- هذا ما وجدتُه أوَّل يوم أتيتُ به إلى هنا، كان هذان التمثالان مع أولادي، وقالا لي وقتَها أنَّ جدَّتَهما "حسنة" هي مَن أعطَتهم إيَّاهما.

الشيخ زهران يعود ويهمس قائلاً:

- افهم الدرسَ يا عدنان! بالتضحياتِ تُنجَزُ المهمَّات، حطِّم هذه التماثيلَ أوَّلاً، ثمَّ بعد ذلك أحرقْها، مع ترديدِ تلك الآياتِ الَّتي حفظْتَها منَّا.

كنتُ أخافُ من جملة الشيخ زهران تلك: "بالتضحياتِ تُنجَزُ المهمَّات"، والتي تنذِرُ بأنَّني سأفقدُ شيئاً مهمَّاً جدَّاً.

طلبتُ بعدها من إبراهيمَ أن يوقدَ ناراً، وقمتُ بتحطيم تلك التماثيل، واكتشفتُ أنَّه مع كلِّ ضربةٍ أجدُ قوَّةَ ذلك الكيان تنخفضُ، وهذا الذي يعكسُه جسدُ العجوز الَّذي بدأ بالهَوانِ بشكلٍ تدريجيٍّ.

وضعتُ حُطامَ تلك التماثيل داخل الصندوق، ورميتُه داخلَ النار الَّتي أضرمْناها، وبدأتُ أردِّدُ تلك الآيات القرآنية، وحسنةُ تصرخ، لكن بصوتِ الشيطانِ الَّذي يسكنُها، تصيحُ ولا تَقوى على فعلِ أيِّ شيء، لهبُ النارِ لم يكن بذلك اللون المعتاد، بل كان يميلُ للزُرقة المشعَّة، كانت تتأوَّهُ ولا تقوى على إنقاذِ نفسِها، شعرتُ أنَّ هناك ريحاً قويَّةً قد هبَّت أثارتْ موجةً كثيفةً من الغبار وحرَّكَتْ

أغصانِ الأشجار، وفجأةً النارُ الّتي أشعلّناها قد انطفأتْ بشكلٍ كامل، وسقطَتْ حسنةُ على الأرض.

ثمَّ سمعتُ صوتَ الشيخ زهران يقول:

- أنجزت المهمةَ بكلِّ نجاح، السيطرةُ لك الآن، ولن يقفَ أمامَكَ أيُّ أحد.

هدأَ ذلك الصداعُ الَّذي كان يضرب برأسي، نهضَ أسامةُ من إغمائِه، توجَّهَ إبراهيمُ ناحيةَ أمِّه الَّتي هَوَتْ صريعةً.

قال مهابٌ بصوت حزين:

- فقدْنا صارماً يا سيدي، لقد كان يُقاوِمُ بكلِّ شجاعةٍ وبسالة.

قاطعتُه بتعبٍ وقلتُ:

- مَن الضحيَّةُ الثانيةُ أخبرْني؟

قال مهاب:

- حسنة! دفعَتْ ثمن فِعلَتِها، ولو لم تمتْ لبقيَ هذا المخلوقُ يعيش بينَهم؛ لأنه مرتبطٌ بها بشكل كامل، وسيطولُ كلّاً من إبراهيمَ وأسامة، ويبقى مع أولادِهم أبدَ الدهر، أفْهِمْهُم ذلك ليعرفوا أنَّ هذه التضحيةَ كان لا بدَّ منها.

قلتُ له مستفسراً:

- ما حال نوحٍ الآن؟ هل انزاحَتْ تلك الغمامةُ الَّتي على عقلِه؟

أجابني بهدوء:

- غداً سيبدأُ يُدرِك ما حولَه، وسيفهم أنَّ الأمورَ عادت إلى نِصابها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

رَبَضْتُ على الأرض من شدة الإرهاق، عكسَ ما حدث في واقعة جميلة، كنتُ أتعاملُ مع كيانٍ قويٍّ جداً ويملكُ قدراتٍ هائلةً، ولولا تدخُّل الهامِسينَ معي، لما تجاوزتُ كلَّ هذا.

بدأ أسامةُ بإدارك ما يقعُ من حولِه، ليجدَ أنَّ والدتَه ملقاة على الأرض، جرى إليها بشكلٍ سريعٍ متعثِّراً من شدَّة الخوفِ عليها، بينما كان إبراهيمُ يحتضنُ أمَّه ويبكي، قام الاثنان بمحاولةِ إيقاظِ والدتِهم، في البداية ظنَّوا أنَّها دخلت في غيبوبةٍ كما في المرَّاتِ السابقة، ولم يجدِ الأخوَين إيَّ استجابةٍ منها.

نظر إليَّ أسامةُ محاولاً استيعاب ما يحدث بعينَين دامعتَين وقال:

- ما الَّذي حصل يا شيخ عدنان؟

نظرت إلى الأرض، محاولاً إفهامَه أنَّ الَّذي جرى يفوقُ كل التصوُّرات، نهضتُ من مكاني واتجهتُ إليهم، وأبلغتُهم أنَّ والدتَهم قد تُوفِّيَت، لم يستوعبا ما قلتُ في البداية، ليقوم أسامةُ بدفعي لأسقطَ أرضاً وهو يردِّد:

- لقد جلبناك لإنقاذها، وأنتَ الآن تقومُ بقتلِها؟

امتلأتْ عُروقي بالدماء من الغضب، وقلتُ:

- الشيطان الَّذي جلبَتْه والدتكَ كان مرتبطاً بها بشكل مباشر، يعني أنَّها لو بقيَتْ على قيد الحياة، سينالُ ذلك الكائنُ المَرِيدُ منكم واحداً تِلوَ الآخرِ بلا تردُّد، ووالدتُكَ تعرفُ ذلك.

انهمرَتْ دموعُ أسامةَ، واختلطَتْ بالعَرَق الَّذي يتصبَّبُ على وجهِه، وهو يحتضنُ أمَّه، وقال:

- ألم تكن هناك أيَّةُ طريقة لإنقاذِها؟

هززتُ رأسي بأسىً مؤكِّداً له أنَّني قد بحثتُ كثيراً عن حلٍّ لطردِ هذا الكيان من دون إلحاقِ الضررِ بها ولم أجدْه، بسبب قوَّة ما فعلَتْه غنيمة.

اقترب إبراهيم مِن أخيه واحتضنَه وبكى معه جرَّاء ما وقع لوالدتِهم.. وقال:

- كنتُ أعرفُ أنَّ والدتي ستدفعُ الثمن على ما فعلَتْه، ما يقوله الشيخ عدنان حقيقيٌّ، هذا الكيانُ لن يتركَنا وحدَنا، وسيُؤذينا ويُؤذي أيضاً أطفالَنا أيضاً، لو بقيَتْ على قيد الحياة.

نفضْتُ الترابَ الَّذي ملأ ملابسي، وقلتُ:

- صدِّقني يا أسامة لو كان هناك أيَّةُ فرصة لإنقاذِها لما تردَّدتُ للحظة في استغلالِها، استنفدنا جميعَ المحاولاتِ لفعل شيء يُبقيها معكم، وستعرفُ جيِّداً أن ما فعلناه أنقذَكم جميعاً، والدتُك همسَتْ بأذني قبلَ مجيئنا إلى هذا المكان قائلةً:

- أعلمُ أن إنقاذَ عائلتي سيكون من خلال التضحية بنفسي، هذا الكيانُ مرتبطٌ بي، افعل ما تراه مناسباً.

استمرَّ أسامةُ بالبكاء، ولم يردَّ، قلتُ هنا لإبراهيم:

- اطلب الإسعافَ مِن أجل نقل جثمان والدتك، وإذا كنتَ تحتاجُني في أيِّ شيء في حالِ سؤالِهم عن الَّذي حدثَ ستجدُني معك...

مرَّ يومانِ على هذه المعركة الضَّرُوسِ، وكنتُ وقتَها أنفضُ آثارَها عن روحي، تلك التجربةُ صعبةٌ وما صاحبَها من أحداث كانت مؤلمة، ليأتيَ إليَّ اتصال من إبراهيم، كنتُ وقتها اعتقدُ أنَّه يُريدُني من أجل حادثة وفاة والدته، لكنَّه طلب شيئاً غير ذلك عندما قال لي: إنَّ مستشفى الأمراضِ العقلية قد طلبت منه الحضورَ بشأن نوح، ويريدُني أنْ أذهبَ معه.

وافقتُ على ذلك، فأنا أريدُ أن أرى ما الَّذي حدث لنوح، وفورَ دخولنا توجَّهنا لغرفة الدكتور، والذي بدوره شرح أنَّ حالةَ نوح تحسَّنت كثيراً، وبالتحديد منذ يومَين، وكأنَّ معجزةً قد حلَّت عليه.

إذ لمسوا منه تجاوباً واضحاً، وطوال الوقتِ كان يسأل لماذا هو في هذه المستشفى، ويريدُ معرفة ما الَّذي حصل له طوالَ الفترة الماضية، وبعد الكثير من التجاربِ الَّتي قمْنا بها لمعرفة نتائج تحسُّنه، تأكَّدنا أنه بحالةٍ مستقرَّة، ويريدُ فقط الحديثَ مع أحدٍ منكم، لم يتردَّدْ إبراهيم ولا للحظة واحدة، وكان كله لهفة من أجل لقاء نوح.

وما إن دخلنا الغرفة حتى قفز نوحٌ من فِراشة متوجِّها إلى أخيه إبراهيم واحتضنَه بإحكام لا يريدُ مفارقَتَه، وراح يُعاتبُه على تلك الفترة الطويلة الَّتي تركَه بها، ولماذا هو في هذا المكان، كان يستفسرُ عن كلِّ شيء، عن والده، وعن ضحى، والأحداث الَّتي توقَّفَتْ معه طوال الفترة الفائتة.

كنت وقتها أدورُ حول نفسي مستكشِفاً حوائط غرفةِ نوح الَّذي مكثَ بها طوال فترةِ علاجه، لم يتركْ مكاناً فيها إلَّا وقد كتبَ عليه اسمَ ضحى، بالفعل نوحٌ كان عاشقاً مجنوناً بها.

شرح إبراهيمُ تفاصيلَ كل ما جرى لهم خلالَ السنين الماضية، وبالتحديدِ منذ ليلة خطبتِه للحظة وفاة والدِه وحسنة، كانت علاماتُ الصدمة باديةً على وجهه، وبكى كثيراً عندما سمع عن ظروف وفاة والِدِه، ووعدَ إبراهيمُ أخاه أنه

سيُخرِجُه من المستشفى خلال الأيام القادمة، فلا يوجدُ ما يمنعُه من الخروج منها وممارسةِ حياته الطبيعيةِ بعد أن تحسَّنَت حالتُه، وزالَ الجنونُ الَّذي كان يسيطرُ عليه، علماً أنَّ ضحى لا تزال زوجتَه ولم تحرِّكْ شيئاً في دعوى الطلاقِ منذ دخوله المستشفى.

وأخبرَه أنَّني من قمتُ بمساعدتِه على العودة مجدَّداً إلى وَعيه، وأني استطعتُ القضاءَ على تلك الأعمالِ الَّتي قامَتْ بها غنيمة بمساعدة حسنة، وفي آخر الأمر وصلنا لهذه النتيجةِ الَّتي نراها.

وما أثارَ غيظي وحَفيظَتي كلمةُ "الشيخ عدنان" الَّتي كان إبراهيمُ يُردِّدُها طوال الأيام الماضية، والتي كرَّرها اليومَ مع نوح، كانت تُشعِرُني أنَّني رجلٌ مسنٌّ.

انتهتْ تلك القصةُ وأحداثُها، لكنَّ أثرَها النفسيَّ والروحيَّ لا يزالانِ يهيمنانِ عليَّ بشكل واضح، كنتُ وقتَها أفكِّرُ كثيراً بالعودة إلى غرفتي، وأغمض عينيَّ، وأعيش طقوسي السابقةَ من دون أيِّ كائناتٍ تنغِّصُ علَيَّ حياتي وتنتهكُ خصوصيَّتي، الوحدةُ شيءٌ جميلٌ لن يفهمَها إلا الشخصُ الَّذي يستشعرُها بكامل حواسِّه، على ما يبدو أنَّني سأفتقدُها كثيراً

وأثناء هذا التفكير... همسَ الشيخُ زهران وقال:

- هذا مصيرُكَ، لا مَفرَّ منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29

طَرَقاتٌ على باب غرفتي بشكلٍ مستمرٍّ، استيقظتُ مفزوعاً بسبب قوة الصوت، نهضتُ من فراشي بعصبيَّة، أريدُ معرفة من يطلبُني بتلك الطريقة، فتحت الباب ورأيت العاملَ المنزلي بعينَين مضطربتَينِ وهو يقول:

- على الباب يوجد امرأةٌ مجنونة، تريدُ مقابلتَك، علماً أنَّني أخبرتُها أنك نائم لكنَّها أصرَّت على الدخول وبدأت بالصراخ.

وقتها كانت الساعة السابعة صباحاً، وفي هذا الوقتِ من النادر أن يأتيَ إلينا أيُّ شخص، قلتُ له بعصبيَّة:

- أبلغها أن هذا الوقتَ ليس مناسباً للزيارات، وعليها أن تأتيَ بعد الظهر.

وقف الخادم ينظرُ إليَّ بكل بلاهة، وعاد وقال:

- أرجوك يا سيدي إنَّ المرأة الَّتي في الخارج كانت تهدِّدُ بالاعتداء عليَّ، إنها امرأة مجنونة، ولا تقبل بأيِّ عُذْر، حاولْ أنْ تخرجَ لها وترى ماذا تريد.

أغضبَني كلامُه كثيراً، من هذه المرأة الوقحة الَّتي تعامِلُ الناس كأنَّهم عبيدٌ عندها وتهدِّدُهم، عزمتُ على طردِها مع توبيخِها ببعض الكلمات، فارتديتُ بعض الملابس الخفيفة، وخرجتُ مصطحباً الغضب، لأواجهَ منظراً أثار دهشتي ولم يكن في الحسبان.

كانت هناك امرأتانِ تقفان عند الباب الخارجيِّ، الأولى لا أعرفُها، أما الثانيةُ فكنتُ أعرفُها جيداً، ابتلعتُ صدمتي وغضبي، وصمتُّ لبرهة، ونفسُ الانطباع ارتسمَ على وجه المرأة الثانية الَّتي تعرفُني، وعمَّ الصمتُ بيننا ننظر إلى بعضنا البعض بكلِّ دهشة، وهناك سؤالٌ واحدٌ يدور في خلدي:

- كيفَ عرفَتْ شريفةُ مكاني هذا؟!

لتخاطبَني باستغراب قائلةً:

- ماذا تفعل في هذا المكان يا عدنان؟

لم أجبْها كنتُ بحالة من الصدمة والذُّهول، فيما كانت المرأة الثانيةُ تهمسُ بصوت خافت قائلةً لها:

- هذا الشيخُ عدنان يا غبيَّة!

أشارتْ بسبَّابتِها ناحيتي وقالت:

- هذا الشيخُ عدنان الَّذين تتحدَّثون عنه!

وبعدها ابتسمَت باستهزاءٍ لتُكمل كلامَها:

- عدنان آخر شخص في العالَم مِن الممكنِ أنْ يُطلَقَ عليه اسم "شيخ".

نظرتْ إليها المرأة الأخرى وقالت:

- هل تعرفينَه؟

بدأت بالضحك وهي تضربُ بيدها، بينما كنتُ أنظر بكل دهشة، ما الَّذي تفعله شريفةُ في هذا المكان؟ ماذا تريدُ منِّي؟

قاطعتْ لحظةَ تفكيري وقالت:

- إنَّ الرجلَ الَّذي ترَينَه أمامَكِ ما هو إلا زوجي السابقُ "عدنان".

نعم إنَّها طليقتي "شريفة"، الَّتي طلَّقتُها قبلَ ثلاث سنوات، والسؤالُ هنا ما الَّذي تفعلُه هنا؟! وماذا كانت تريدُ مني مع هذه المرأة؟!!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة:

الثِّقةُ هي أولُ طريق للخيبة، ولا تعتقدْ أنَّ مَن حولَكَ سيكونون مثلَك، هناك كثيرٌ ممَّن يودونَ أن يرموكَ في البئر، ثمَّ يتهمون الذئبَ، وليس كلُّ مَن يمدُّ يدَه إليك يريدُ مساعدتَك، القلوبُ هي الشواهد، والنوايا كَينونةُ الروح، إذا ماتَ الضميرُ فسدتِ السرائرُ... ابتسمْ لهم، عاشرْهم بما يُرضي نفسَك، لكن لا تندفِعْ بكلِّ ما في قلبك؛ لأنَّك في لحظة مِن الممكنِ أن تفقدَ كلَّ شيء وتقعَ في غياهِبِ بئرِ الخِذلانِ الَّذي لا قرارَ له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهداء

المقدمة

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23
24
25
26
27
28
29
الخاتمة:
الفهرس..